

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء السادس	تونس في صفر الخير ١٣٦٠ وفي مارس ١٩٤١	المجلد الرابع

رئيس قلم التحرير

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي بن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الاول بجامع حمودة باشا

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن الجزء ثلاثة فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

١٢ ـ ٤

المجلد الرابع — الجزء السادس

فهرس العدد

عـدد ٦



مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

المجلد الرابع	تونس في صفر الخير ١٣٦٠ وفي مارس ١٩٤١	الجزء السادس

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي بن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الاول بجامع حمودة باشا

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن الجزء ثلاثة فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

بقلم محمد المختار بن محمود رئيس قلم التحرير

رأس الحكمة مخافة الله . وأساس النجاح طاعة الله . فمن اراد ان يكون في هذه الحياة مستقيما . وان يكون مقامه في الآخرة مقاما عظيما . فليكن الهدف الذي يرمي اليه . والمحور الذي يدور في جميع اعماله عليه . طاعة الله جل جلاله . وتباركت آلاؤه وعم نواله . فاذا كان الله على عبده راضيا . حفت به العناية من كل جانب . وكان في حصن حصين من جميع الاكدار والمصائب . فالعاقل الموفق هو الذي يبذل قصارى جهده في فعل ما ينجيه . وتجنب ما يرديه . وشريعة الاسلام قد وضحت للسائرين طرق السلامة . وكشفت للسالكين عن مهامه الندامة . فاصبح الناس وطرق الحق امامهم بحمد الله واضحة جلية . ومسالك الضلال بلطف الله مكشوفة مقصية .

وهذه الآية التي جعلناها الليلة محور الحديث . قد انتظم في سلكها اعظم قاعدة من قواعد الاسلام . واحتوت على اشرف المبادي التي يقوم عليها امر النظام العام .

وبيان ذلك ان الانسان مطالب بتنظيم حياته في خاصة نفسه . وفيما بينه وبين الناس . وهذا الانتظام منه ما يرجع الى الحياة الدنيا الفانية . ومنه ما يرجع الى الحياة الاخرى الباقية . وكل ذلك يرجع الى الامور الاربعة التي اشتملت عليها هذه الآية وهي : طاعة الله - وطاعة رسوله - وطاعة اولي الامر - والامر الرابع الرجوع الى الله والى الرسول عند وقوع التنازع .

فاما طاعة الله . فبفعل جميع ما امر به الله . وتجنب ما نهى عنه . وهي كلمة مختصرة لكنها جامعة . فحاصل التقوى اجتناب وامتثال . فاذا فعل المكلف ما امره به ربه فقد حصل له التوفيق بالتحلي بفعل المامورات . واذا تجنب المكلف ما نهاه عنه ربه فقد حصل له الكمال بالتخلي عن المنهيات . وبذلك تبرأ ذمته . وتدرأ عنه مذمته .

(*) المسامرة التي القاها رئيس قلم التحرير بالمجلة في مساء يوم الاربعاء ١٦ المحرم المنصرم امام المذياع (تونس القومية) في المهرجان العظيم الذى اقامته ادارة الاذاعة بمناسبة عيد جلوس سيدنا ومولانا احمد باشا باي الثاني على العرش الحسيني ومضي اثنى عشر عاما على ولايته ابقاه الله وذلك انه تولى الملك في يوم - ٣ - رمضان سنة ١٣٤٧ الموافق ليوم - ١١ فيفرى سنة ١٩٢٩

واما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد قرنها الله بطاعته ، ونوهت بشانها الآيات القرءانية في غيـر ما موضع . فقال تعالى (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) وقال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) وقال تعـالى (فلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فأكد جل وعلا بهذه الآيات وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابان ان طاعته طاعـة الله ، وافاد بذلك ان معصيته معصية الله ، وقال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم) فتوعد على مخالفة امر الرسول . وجعل مخالف امر الرسول والممتنع من تسليم ما جاء به ، والشاك فيه خارجا من الايمان بقوله تعـالى (فلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) اي ان يسلمـوا بما تقضي به عليهم من غير ان يكون في صدورهم ضيق او شك او حرج ، بل تكون صدورهم منشرحة ، ونفوسهم مطمئنة ، وفي هـذه الآية دلالة على ان من رد شيئا من اوامر الله تعـالى او اوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فهـو خارج عن الاسلام سواء رده من جهة الشك فيـه ، او من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم ، وبذلك حكم ابو بكر الصديق رضي الله عنـه بارتداد من امتنعوا من اداء الزكاة وقتلهم لان الله تعالى حكم بان من لم يسلم للنبي صلى الله عليه قضاءه وحكمه فليس من اهل الايمان .

واما طاعة أولي الامر ، فهي الاساس العظيم لتنظيم امر الحيـاة وترتيب شؤنهـا ، وذلك لان الامة لا ينتظم امرها ، ولا يستقيم حالها ، ولا يستتب فيها امن ولا نظام ، الا اذا كانت ممتثلة منقادة لاولي الامر فيها ، لانـ الإساس الذي تقام عليه حياة الـدول هو وجود مبدأ الانقياد بين الراعي ورعيته ، فهو يامر وهم يمتثلون ، وهو يحكم وهم ينفذون ، وبذلك يرتقي حال الامـة ، ويعلو شانها ، ويعتز جانبها .

اما اذا حل التخاذل محل الانقياد ، وبدت على الامة فكرة الثورة وعدم الامتثال للنظام العام ، فذلك علامة الانحلال ، ومبدأ الفناء والاضمحلال .

واذا تتبعت رعاك الله حياة الامم في القديم والحديث ، وجدت ان اقـوى الاسباب في سقوط الامم وتلاشيها ، هو انتشار فكرة الفوضى بين افراد الرعية وتفشيها ، وما بلغ الاسلام الى ما بلغ من الانتشار وقوة السلطان الا بانقياد الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفانيهم في الامتثال لاوامره ، وتضحيتهم بنفوسهم واموالهم ودمائهم واعراضهم في مرضاة الله ورسوله

وقد اختلف العلماء في المراد من اولي الامر ، فقيل هم الامراء وقيل هم رؤساء الجند ، وقيل هم علماء الدين ، وهذا الاخير هو الذي اختاره اكثر التابعين رضي الله عنهم ، وهـو الـذي اختاره امام المحدثين وعالم المدينة من شدت له الرحال ، وضحى العلماء في سبيل الاجتماع بـه والاخذ عنه.

بكل مرتخص وغال مالك بن انس رضي الله عنه فقد حكي عن صاحبيه مطرف وابن سلمة انهما قالا سمعنا مالكا يقول هم العلماء . وقال خالد بن نزار وقفت على مالك فقلت يا ابا عبد الله ما ترى في قول الله تعالى (واولي الامر منكم) قال وكان محتبيا فحل حبوته . وكان عنده اصحاب الحديث . ففتح عينيه في وجهي وعلمت ما اراد وانما عنى اهل العلم .

ومال كثير من المفسرين الى ان المراد باولي الامر ما يعم جميع هاته الاصناف . منهم القاضيان ابن العربي والجصاص وهذا هو الذي نختاره . وعليه فالمراد باولي الامر كل من له سلطة يتوقف تنظيم حال الامة على الامتثال اليها . اما الامراء فلان اصل الامر منهم . وتنفيذ الاحكام بايديهم . وهم القائمون على شؤون رعاياهم . والعاملون على ترقية مستواهم . فطاعة امرهم واجبة . وتنفيذ احكامهم لا بد منه . واما العلماء فلان سؤالهم واجب متعين على الخلق . وجوابهم لازم . وامتثال فتواهم واجب . والامراء لا يقدمون على اي عمل الا بعد اخذ رأيهم فيه . وقد قال الامام الرازي (١) في هذا المقام كلمة بالغة حد الاجادة وجدير بالعلماء ان يضعوها من صدورهم موضع القلادة . ولا يتذكرون السيف ولانجاده ونصها (ان اعمال الامراء والسلاطين موقوفة على فتاوي العلماء . والعلماء في الحقيقة هم امراء الامراء)

ثم ان اولي الامر الذين تكون طاعتهم واجبة ويكون النزول على قضاياهم امرا متحتما . هم امراء الحق وقضاة العدل وعلماء العمل والتقوى اما امراء الجور وقضاة السوء وعلماء القول دون العمل فالله ورسوله بريئان منهم . فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم وانما يجمع بين الله ورسوله والامراء والقضاة والعلماء الموافقين لهما في ايثار العدل . واختيار الحق . والامر بهما . والنهي عن اضدادهما .

وذلك ان الله تعالى لم يفرض على الناس في هذه الآية طاعة اولي الامر . الا بعدما فرض على اولي الامر في الاية قبلها ان يحكموا بالعدل في قوله (ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا)

اذ العدل هو اساس العمران . والاصل العظيم في كفالة حقوق الانسان . وقد نوه القرءان بشانه كثيرا فقال الله تعالى (ان الله يامر بالعدل والاحسان) وقال تعالى (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) وقال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق)

اما الاحاديث الواردة في شان العدل فهي لا تكاد تحصى منها حديث انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لا تزال هذه الامة بخير ما اذا قالت صدقت واذا حكمت عدلت واذا استرحمت رحمت) وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ينادي مناد يوم القيامة اين الظلمة واين اعوان الظلمة فيجمعون كلهم حتى من برى لهم قلما اولاق لهم دواة . فيجمعون ويلقون

(١) انظر صفحة - ٢٥١ - جزء - ٣ - من سورة النساء

في النار) وعن الحسن رضي الله عنه ان الله اخذ على الحكام ثلاثا ان لا يتبعوا الهوى ، وان يخشوه ولا يخشوا الناس وان لا يشتروا بآياته ثمنا قليلا)

وكان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يقولون (اطيعوني ما عدلت فيكم فان خالفت فلا طاعة لي عليكم) وكان امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه يقول : حق على الامام ان يحكم بما انزل الله . ويؤدي الامانة فاذا فعل ذلك يحق على الرعية ان يسمعوا ويطيعوا .

وقد ظهر بهذا ما في هذه الشريعة الغراء من التحريض على العدل والانصاف والتحذير من الجور والظلم والاعتساف . فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم .

واما قوله تعالى (فان تنازعتم في شي فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تاويلا) فاعلموا ان الحوادث التي تعرض للناس اما ان تكون احكامها منصوصا عليها في الكتاب والسنة أو لا تكون كذلك . فان كانت منصوصا عليها في احدهما فالواجب العمل بذلك النص من غير زيادة ولا نقصان . وذلك هو المراد بقوله في صدر الآية (اطيعوا الله واطيعوا الرسول ـ) وان كانت غير منصوص عليها فالواجب الاجتهاد في تقرير حكم لها بقياسها على ما يشبهها مما ورد فيه النص من الكتاب او السنة . فيكون معنى قوله (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) اي اذا تنازعتم في حكم شيء لم يرد فيه نص عن الشارع فردوه الى الاحكام المنصوصة في الوقائع المشابهة له . وذلك هو القياس . ومن اجل ذلك جعل علماء الاصول هذه الآية من اظهر الادلة على اعتبار القياس وحجيته . لان قوله فردوه الى الله والرسول لا يجوز ان يكون المراد به الامر بالرد فيما وقع التنصيص عليه اذ من شان ذلك ان لا يقع فيه النزاع ، على انه هو الذي اشير اليه في صدر الآية ولا يجوز ان يكون المراد به ان ما يعرض من الحوادث غير المنصوص على احكامها يسكت عنه اذ لا بد لكل حادثه من حكم . ولا بد للشريعة في كل نازلة من قول . ولا يمكن ان تكون هناك حادثة ليس لله فيها حكم على ان هذا كما لا يخفى يفضي الى تعطيل الشريعة ووصفها والعياذ بالله بالقصور عن ان تكون كافلة لجميع مصالح البشر في الدنيا واللآخرة . فتعين ان يكون قوله (فردوه الى الله والرسول) محمولا على الامر بالقياس في الحوادث التي لم يرد نص على احكامها

ولقد وصف القاضي ابوبكر بن العربي من يقول في حادثة انه لا حكم لله فيها ـ بالكفر ـ حيث قال في تفسير هذه الآية بعد ما تعرض لما كنا نقرره من وجوب تقرير حكم لكل حادثة : ان الحادثة اذا عرضت ولم يكن لها حكم منصوص عليه لا في كلام الله ولا في كلام رسوله ايقال قال الله تعالى وقال رسوله صلى الله عليه وسلم فيما لم يقولا . فذلك كفر . ام يقال دع هذا فليس لله فيه حكم فذلك كفر ولكن تضرب الامثال ويطلب المثال حتى يخرج الصواب اهـ كلامه (١) .

(١) انظر صفحة ـ ١٨٩ ـ جزء ـ١ـ من تفسير الآية الثالثة والثلاثين من سورة النساء

واما قوله (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فهو يقتضي ان من لم يطع الله والرسول لا يكون مؤمنا ، وهذا يقتضي ان يكون المذنب خارجا عن الايمان وقد حمله اهل السنة على ان المراد به التهديد وتشديد الوعيد لما اجمع عليه اصحابنا اهل السنة رضي الله عنهم من ان المذنب لا يحكم بكفره انما هو مؤمن عاص .

وقوله (ذلك خير واحسن تأويلا) اي ان ما امرتم به في هذه الآية خير لكم واحسن عاقبة لكم لان التأويل هنا معناه مآل الشيء ومرجعه وعاقبته . ويصح ان يكون من التأويل بمعنى المخرج من الامر المشكل ، فيكون معنى قوله (واحسن تاويلا) اي احسن من تاويلكم لانفسكم من غير رجوع الى الله ورسوله .

هذا وبما ان تفسير الآية قد جرنا الى الكلام على العدل وبيان ما له من مقام عظيم عند الله تبارك وتعالى ، فلنجعل خاتمة هذا الدرس حديثا صحيحا في تقرير منقبة عظمى للامير العادل وهي ان طاعته كطاعة الله وان الله ببركته وفضله يدفع عن امته كل خطر وسوء ، ويكون لامته وقاية

فقد روينا في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الامير فقد اطاعني ، ومن يعص الامير فقد عصاني ، وانما الامام جنة يقاتل من ورائه ، ويتقى به فان امر بتقوى الله وعدل فان له بذلك اجرا ، وان قال بغيره فان عليه منة (اي عليه الوزر)

وحيث اننا الآن بصدد الاحتفال بمرور اثنى عشر عاما على ارتقاء جلالة ملكنا المعظم سيدنا ومولانا احمد باشا باي لعرش المملكة التونسية ادام الله دولته ، وايد عزه ونصره وأدام وصولته ، فواجب علينا ان ننوه ببعض ما اتاه الله من شريف الخصال ، ولوامع الاعمال ، وناهيك بملك عادل موفق يدافع عن الحق ، ويجري سيف العدل في عنق كل ظالم ، ويدافع عن الشرع ورجاله ، وينتصر لدين الله ، ففي ايامه السعيدة انتشر التعليم بالبلاد التونسية ، وقويت شوكة رجال الشريعة المحمدية ، فهو الذي يحنو على الشريعة ورجالها بجميع قواه ، وينزل رجال العلم من منازل العز في اعلى ذراه ، ادام الله عزه ونصره وعلاه ، وقد ظهرت بركاته ايده الله على هذا القطر السعيد ، فما من الم يصيبنا الا ويكون وقعه لطيفا ، ومظهره ضعيفا ، ولا تزال حالة بلادنا حالة حسنة بحمد الله لا سيما اذا قيست بغيرها من البلدان ، التي اصيبت بمظاهر الفساد والافتتان ، بما اصابها من نقص في الاموال والانفس والثمرات ، وما تعاقب عليها من شدائد البليات ، فقد بقيت بلادنا تلقاء ذلك كله ءامنة مطمئنة لم يصبها من الضرر الا الاذى ، ولا من الالم الا القذى ، فواجب علينا ان تكون السنتنا ببقاء هذا الامير الجليل دائمة الدعاء ، ملحة على الله تبارك وتعالى في اجابة هذا النداء

اعجاز القرآن

(٣)

بقلم العالم النحرير الشيخ سيدي علي النيفر
المدرس من الطبقة الاولى بالجامع الاعظم

(الرابع) من وجوه اعجاز القرآن غـزارة علومه واحتواؤه على دقائـق علمية لم تنكشف الا بعد قرون متطاولة من نزول القرآن

لامرية ان القرآن الحكيم منبع العلوم فلقد تفرعت عنه فنون كثيرة واخذت منه علوم غزيرة من كلام واصول وفقه ولغة ومعان وبيان وادب وتاريخ وفلسفة وغيرها حتى ذكر بعض اهـل العلـم ان العلوم الماخوذة من القرآن تبلـغ المئين عـدا واذا علمنا ان بعض الآيات القرآنية خص بالتاليف وان القاضي أبا بكر بن العربي املى ثمانمائة مسألة على قصة الخضر وخمسمائة مسألة على سورة نوح عليه السلام ادركنا مقدار مـا في القرآن العزيز من العلوم التي تكاثر القطر ولا يأتي عليها عـد ولا حصر مما هو غير مقدور لبشر ان يأتي بمثله او بما يدانيه

نعم ان بعض الحقائق من مختلف العلوم تؤخذ من القـرآن بطريقة التصريـح وبعضها يأخذ منه بطريقة التلويح ولنورد جملة من ذلك قال تعلى (وارسلنا الرياح لواقح) قال بعض اهل العلم فيها ايماء لما اكتشفه علماء النبات اخيرا من كون الشجر كالحيوان منه ذكور ومنه اناث وان الاناث لا تؤتي ثمرتها الا اذا لقحت بمادة من الذكور وان هذه المادة تحملها الرياح من الذكور الى الاناث حتى قال بعض علماء الافرنج ان اهل جزيرة العرب سبقوا علماء اوروبا الى ذلك بثلاثة عشر قرنا .

وقال تعلى والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت) قال بعضهم فيها اشارة الى كيفية تكون السحاب وانه ينشأ من ابخرة الماء ترتفع في طبقات الجو فاذا وصلت الى درجة مخصوصة في البرودة صارت سحابا .

وقال تعلى الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن وقال والقى في الارض رواسي أن تمتد بكم وقال ايضا قل انظروا ماذا في السماوات والارض وقال ايضا أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء وقال ايضا وفي الارض آيات للموقنين فيهـا ايماء للعلوم الجغرافية والفلكية والطبيعية والنظر في الاسرار الكونية .

وقال سبحانه ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وقال هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب وقال ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب وقال وكل في فلك يسبحون فيها تلويح الى قواعد من علم الهيئـة

والفلك وفي هذه الآية الاخيرة تصريح بما استقر عليه راي علماء الفلك من كون كل من الشمس والارض والقمر تدور في افلاكها كسائر الكواكب السيارة .

وقال جل من قائل ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين) فيها اشارة الى علم التشريح ومثلها في ذلك آية (بلى قادرين على ان نسوي بنانه) قال بعض العلماء خص البنان بالذكر لدقة تركيبه وعجيب صنعه وخلق اجزائه على كيفية من المرونة يستطيع معها مزاولة ادق الصناعات واصعبها وما فرش فيه من الاعصاب الحساسة وما في بشرته من تخطيط عجيب لا يشابه تخطيط اي بنان آخر ولذا وقع الاكتفاء بطابع الابهام عن الامضاء من الاميين بل هو اصح من الامضاء لامكان تقليده الى غير ذلك من بديع صنع البنان مما كشف عنه اخيرا علم التشريح فتبارك الله احسن الخالقين .

وقال تعلى كلوا واشربوا ولا تسرفوا) فيها اشارة الى قاعدة طبية وهي الاقتصاد في الماكل والمشرب لان الاسراف فيهما مجلبة للامراض ولهذا ورد في الحديث ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن

وقال تعلى وفي (الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعضها في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقال ايضا (ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) فيها ايماء لعلوم عدة من علم الحيوان والنبات وطبقات الارض وحوادث الجو واحوال البحر وغيرها .

وقال تعلى لكيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم فيها اشارة الى عام الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة .

وقال سبحانه انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب) قال بعض اهل العلم فيها اشارة الى قاعدة هندسية .

وفي (آية اذا لذهب كل اله بما خلق) اشارة الى برهان منطقي وهو برهان التمانع .

فهذه نبذة مما تشير اليه بعض الآيات من العلوم التي كانت وقت التنزيل تحت ستر الخفاء فلا شبهة ان اشتمال القرآن عليها معجزة واضحة وبرهان ساطع على ان القرآن من عند الله العليم الخبير وهو مصداق قوله تعلى ما فرطنا في الكتاب من شيء ولقد سئل بعض السلف عن هذه الآية قال السائل فاين ذكر الخانات وكانت غير معروفة عند العرب قبل الفتوحات الاسلامية فاجاب انها مذكورة في قوله ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم وشبيه بهذا ما ذكره بعض شيوخنا في قوله تعلى وله الجوار المنشئات في البحر كالاعلام اي له السفن التي هي في ضخامتها كالجبال الشاهقة انها اشارة لهذه البواخر العظيمة المنشئات في هذا العصر فهي من معجزات القرآن وليس المراد بها السفن الموجودة في عصر التنزيل لانها لم تكن من الضخامة بحيث تشبه بالاعلام .

وينخرط في هذا السلك قوله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة فان في قوله من قوة من الاجمال البليغ ما يشير الى هذه المخترعات الحديثة العجيبة التي لم تكن تخطر على بال اهل ذلك العصر .

وبالجملة فان جميع هذه الاختراعات المدهشة والمصنوعات العجيبة التي ظهرت في هذه العصور والتي ربما سوف تظهر تشير لها آية ويخلق ما لا تعلمون .

فلهذه الوجوه من الاعجاز اعترف المنصفون ولو كانوا ممن لم يعتنقوا الاسلام بان القرآن من عند الله حتى قال بعض المنصفين من علماء فرنسا (لو وجدنا القرآن في فلاة ولم نعرف من جاء به لعلمنا انه من عند الله) .

وحسبنا في هذا المقام ما وصف به القرآن نبينا عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه القاضي ابو الفضل عياض رضي الله عنه في كتابه الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ونصه : وقال صلى الله عليه وسلم ان الله انزل القرآن آمرا وزاجرا وسنة خالية ومثلا مضروبا فيه نبأوكم وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما كان بعدكم وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن قسم به أقسط ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدي الى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره اضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .

فلا جرم كان معجزة خالدة له عليه الصلاة والسلام لا تبليها الايام ولا تخلق جدتها الاعوام وكان اجل معجزاته قدرا واسماها خطرا اذ هو معجزة تحتوي على معجزات كثيرة والى هذا المعنى يشير الحديث الذي رواه الامام البخاري رضي الله عنه في صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم ولفظه حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنا سعيد المقبري عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من الانبياء نبي الا اعطي ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحاه الله الي فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة . فسر هذا الحديث بوجوه انسبها انه مسوق لبيان كون معجزات الانبياء قبل نبينا على جميعهم الصلاة والسلام ولئن كانت من وضوح الدلالة على صدقهم بحيث يمكن ان يؤمن لاجلها البشر لكنها كانت مقصورة على من شاهدها منهم بخلاف القرآن الكريم (وهو المراد من الوحي في الحديث) فانه اشد اعجازا وابهر وابقى على ممر الزمان واظهر لامكان ادراك اعجازه من كافة الناس الى قيام الساعة ولهذا قال فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة .

ويؤيد هذا المعنى في شرح الحديث قوله تعالى او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم فانه نص في ان القرآن معجزة تكفي وحدها في الدلالة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكفى بقول الله هذا شاهدا باعجاز القرآن فلنجعله مسك الختام

علي النيفر

الحديث الشريف

الحلال بين والحرام بين

عن ابي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ ان يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ الَا وَهِيَ القَلْبُ

(الحديث رواه الشيخان)

روى هذا الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم النعمان بن بشير رضي الله عنه ولم ينفرد بروايته وحده بل رواه معه سبعة من اصحاب رسول الله وقد اكد سماع هذا الحديث بنفسه من فم النبي (صلعم) مباشرة بما جاء في بعض الروايات انه اهوى الى اذنيه باصبعيه وقال سمعت رسول الله يقول وقرأ الحديث كما اكد سماعه له بنفسه بقوله سمعت رسول الله ولم يقل ذلك في غيره من مروياته بل عادته ان يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم

والنعمان بن بشير صحابي وابن صحابي وهما انصاريان ولد على رأس اربعة عشر شهرا من الهجرة على الاصح وحنكه عليه الصلاة والسلام بتمرة وهو اول مولود ولد للانصار بعد مقدم النبي (صلعم) للمدينة كما ان عبد الله بن الزبير المولود معه في عامه اول مولود ولد للمهاجرين في المدينة وقد روي له مائة واربعة عشر حديثا وكانت وفاته سنة اربع وستين بقرية من قرى حمص مات بها قتيلا رضي الله عنه وعن ابيه وعن اصحاب رسول الله اجمعين

هذا الحديث اصل عظيم من اصول الشريعة قال ابو داود . الاسلام يدور على اربعة أحاديث

وعد هذا الحديث منها ، ولا يخفى عظم موقعه وكثرة فوائده فقد نبه فيه على صلاح المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغير ذلك من المعاملات وسائر الاقوال والافعال وانه ينبغي ان تكون حلالا وارشد الى انه ينبغي ترك المشتبهات فإن في تركها وقاية للدين وللعرض وحذر من الوقوع في الشبهات ثم وضح ذلك بضرب المثل ثم بين اهم الامور وهو القلب وان عليه مدار الصلاح والفساد فبصلاحه يصلح حال الانسان وبفساده واختلاله يفسد حاله وتضطرب اقواله واعماله حتى قال الامام ابن العربي يمكن ان ينتزع من هذا الحديث وحده جميع الاحكام

ومهما يكن من شيء فالحديث دل على ان الاشياء لا تعدو ثلاثة اقسام ـ القسم الاول حلال بين واضح لا يخفى حله وهو ما ورد نص بحله من كتاب الله او سنة رسوله كما في قوله تعلى (احل لكم الطيبات) وقوله (وطعام الذين اوتو الكتاب حل لكم) وقوله (واحل لكم ما وراء ذلكم) وقوله (كلوا مما في الارض حلالا طيبا) وقوله (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق)

القسم الثاني حرام بين لا تخفى حرمته وهو ما ورد نص بحرمته من كتاب اوسنة مثل قوله تعلى (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما) وقوله (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم الآية وكتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن مثل الخمر والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به وكتحريم الزنا والسرقة والقتل والكذب والنميمة وكل ما جعل الشارع فيه حدا او عقوبة او وعيدا

وكلا هذين القسمين حكمه واضح معلوم حكم به احكم الحاكمين لمصلحة وفائدة تعود علينا نحن معاشر المكلفين رحمة منه وفضلا والله ذو فضل على العلمين فما احله لنا فذلك ما فيه نفعنا وبه صلاح معاشنا ومعادنا وما حرمه علينا كالخمر التي تفسد عقولنا ولحم الخنزير الذي يضر اعضاء التناسل ويورث الجبن والنذالة على ما حرره بعض اطباء العصر فذلك منتهى الرافة والرحمة ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون

القسم الثالث امور مشتبهة ليست بواضحة الحل ولا واضحة الحرمة تخفى على كثير من الناس ويشتبه عليهم امرها فلا يعرفون انها من قسم الحلال او من قسم الحرام وهي ما تعارضت فيه الادلة من غير ترجيح او لم يرد فيه نص لا بالحل ولا بالحرمة وكلها امور توقع في الحيرة والشك ولذا جاء في الحديث لا يعلمهن كثير من الناس اي لا يعلمون حكمها ولكن العلماء الراسخين في العلم لا يجهلون حكمها بل يجزمون في امرها بما اعطاهم الله من قوة الترجيح فيما تعارضت فيه الادلة او بالقياس او الاستصحاب فيما لم يرد فيه دليل ، وذلك قوله في الحديث (ان الحلال بين وان الحرام بين وبينهما امور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس) وحيثما كانت تلك الامور الغير الواضحة الحل او الحرمة مما يوقع الانسان في الشك والريبة ويبعده عن ساحة اليقين والاطمئنان كان من الورع وكمال الدين تركها فقد قال النبي (صلعم) دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، ولقد ضرب لامته المثل بنفسه في ترك المشتبهات والتورع عنها فقد قال في تمرة وجدها في بيته (لولا ان تكون صدقة لاكلتها) فلما اشتبه فيها

امتنع من اكلها لتتأسى بـه امتـه في التورع عن مواطن الشبه فان في ذلك تطهيرا للدين والعرض معا وذلك قوله في الحديث (فمن اتقى الشبهات) اي تجنبها وتحفظ منها (فقد استبرا لدينه) اي حقق البراءة لدينه فاصبح من المطمئنين الموقنين وعرضه فلم يعرضه لقالة السوء وغواة الفتنة وهذا فضلا عن انه احتاط لنفسه من الوقوع في الحرام والهلكة والاثم ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه .

وها انـا اروي لك حادثتين تعلم بهمـا مقدار اعتباره عليه الصلاة والسلام للامـور المشتبهة واحتياطه في الحوادث والنـوازل المحتملة للتحليل والتحريم لاشتباه اسبابها . الحادثة الاولى : ما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت اختصم سعد ابن ابي وقاص وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد يا رسول الله هذا ابن اخي عتبة بن ابي وقاص عهد الي انه ابنه انظر الى شبهه وقال عبد ابن زمعة هذا اخي يارسول الله ولد على فراش ابي من وليدته . فنظر رسول الله (صلعم) فراى شبها بينا بعتبة فقال هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر واحتجبي منه ياسودة فلم تظهر له سودة قط . فقد حكم رسول الله (صلعم) بالولد للفراش وانه لزمعة على الظاهر وانه اخو سودة زوج النبي (صلعم) لانها بنت زمعة ثم امر سودة بالاحتجاب منه للشبهة الداخلة عليه والقائمة في نفسه بسبب ما رأى من شبهه بعتبة فاحتاط لنفسه لان حكمه كان مبنيا على الظاهر لا على القطع واليقين اذ لو كان الولد ابن زمعة في علم الله عز وجل لما امر سودة بالاحتجاب منه كما لم يأمرها بالاحتجاب من سائر اخوتها عبد وغيره فانظر كيف كان حكمه (صلعم) مراعى فيه الاحتياط التام فراعى فيه جانب الدليل الظاهر وجانب الشبهة القائمة ولم يهمل الشبهة في جانب ما قام له من الدليل الظاهر على ان الغلام لعبد بن زمعة . الحادثة الثانية ما جاء في حديث عدي بن حاتم انـه قال يا رسول الله اني ارسل كلبي واسمي عليه فأجد معه على الصيد كلبا آخر . قال : لا تأكل انما سميت على كلبك ولم تسم على غيره فأفتاه رسول الله (صلعم) بمراعات الشبهة خوفا من ان يكون الكلب الذي قتل الصيد غير مسمى عليه فكانه اهل لغير الله به وقد قال الله تعالى في ذلك (وانه لفسق) فكان في فتياه (صلعم) دلالة على الاحتياط في الحوادث والنوازل المحتملة للتحليل والتحريم . وهذا اصل عظيم في هذا الباب

ثم اعلم ان العلماء قسموا المشتبهات ثلاثة اقسام . القسم الاول ما يعلم الانسان انه حرام ثم يشك فيـه هل زال تحريمه اولا كالذي يحرم على المرء أكله قبل الذكاة اذا شك في ذكاته فهذا باق على تحريمه ما لم يتيقن وجود المبيح والاصل فيه حديث عدي المتقدم .

القسم الثاني ان يكون الشيء حلالا فيشك في تحريمه كرجل لـه زوجة فيشك في طلاقها فهذا القسم على اصل اباحته ما لم يعلم تحريمه بيقين والاصل فيه حديث عبد الله بن زيـد فيمن شك في الحدث بعد ان تيقن الطهارة وانه على طهارته .

القسم الثالث انـ يشك في شيء فلا يدري احلال ام حـرام ولا دلالة على ترجيح احدهما فالاحسن التنزه كما فعل النبي (صلعم) في التمرة التي وجدها في بيته وقد تقدم حديثها

واما ان ترجيح عنده حكم ثم قام عنده وهم بخلافه فالاصل عدم اعتبار الامر الموهوم كترك استعمال ماء باق على اوصافه مخافة ان تكون قد وقعت فيه نجاسة او ترك الصلاة في موضع لا اثر فيه للنجاسة مخافة ان يكون قد اصابته نجاسة جفت او كغسل ثوب مخافة اصابة نجاسة لم يشاهدها ونحو ذلك فهذا يجب ان لا يلتفت اليه فان التوقف لاجل تجويز ذلك هوس والورع منه وسوسة شيطان اذ ليس فيه من معنى الشبهة شيء

وقوله في الحديث (ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام) فيه وجهان احدهما ان من لم يتق الامور المشتبهة وتجرأ على الوقوع فيها فانه يجره تساهله في امرها الى الجرأة على الحرام فهي تفضي به لا محالة الى المحرمات كما قال بعضهم الصغيرة تجر الكبيرة والكبيرة تجر الكفر وكما روي المعاصي بريد الكفر وقديما قيل : ⊛معظم النار من مستصغر الشرر⊛

الثاني ان من اكثر من مواقعة الشبهات اظلم عليه قلبه لفقدان نور العلم ونور الورع فيقع في الحرام وهو لا يشعر به وذلك قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) روى الترمذي عن ابي هريرة رضي الله عنه : ان الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فان هو تاب صقل قلبه وفي رواية ان العبد اذا اذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه وكلما زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران وحاصله ان من قارب الشيء خالطه غالبا وفي حديث مرسل من يرعى بجانب الحرم يوشك ان يخالطه ومن تهاون بالمحقرات يوشك ان يقع في الكبائر .

وقد لا يخفى عليك ان من ترك ما فيه شبهة كان اكثر تركا لما ظهرت حرمته فعاش مغمورا بهالة من اليقين والطمأنينة نقي الصحيفة محمود السيرة حتى يلقى ربه بقلب سليم اما ذلك الذي يعمد الى مواطن الشبه فيستبيح العمل بها بحجة انها قد تكون حلالا فقد قذف بنفسه في ظلمة الشك والريبة وقد يحمله ذلك على الوقوع فيما لا يحل من حيث لا يدري فمن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه واذا وقع فيه فقد تعرض لغضب صاحب الحمى وهذا هو الشر بعينه .

وقوله (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يرتع فيه) هذا مثل ضربه الرسول (صلعم) لمحارم الله عز وجل بما هو مألوف عندهم تقريبا للمقصود من اذهان مستمعيه وتحقيقا له وتثبيتا في نفوسهم واصله ان الملوك كانت تحمي مراعي لمواشيها وتتوعد من يقربها بالعقوبة فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته عن ذلك الحمى لانه ان رعى بالقرب منه فالغالب الوقوع فيه لانه قد تنفرد الفذة وتشذ الشاذة فالحذر ان يجعل بينه وبين ما حماه الملك مسافة يأمن فيها وقوع ذلك وهكذا محارم الله عز وجل كالقتل والربا والسرقة وشرب الخمر والكذب والقذف والغيبة والنميمة لا ينبغي ان يحوم حولها مخافة الوقوع فيها .

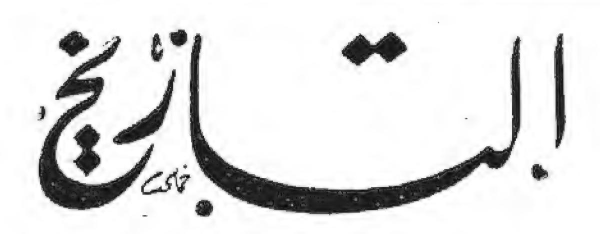
ولنضرب لك مثلا مما هو مشاهد محسوس يكثر وقوعه بيننا دائما فقد يقترح عليك من يزعم صداقتك من قرناء السوء الذهاب معه الى محل لهو وخلاعة لتريح نفسك من عناء الاعمال فترى نفسك باديء الامر غير مطمئنة الى هذا المكان لانه محل شبهة وربما تقع فيه بعض المناكر مما لا قدرة لك على انكاره ودفعه وربما كان سببا لتلويث عرضك بما انت بريء منه ويرى منك قرين السوء عدم الموافقة على مصاحبته والجلوس معه في ذلك المكان فيغريك بمعسول القول

ويقول لك ما دمت انت بريء من النقائص فما عليك بقول الناس ولا يهمك رضاهم او غضبهم ومن راقب الناس مات كمدا الى غير ذلك من الاقاويل المعسولة التي ظاهرها نصح وباطنها غش وهكذا يأخذ في اغرائك بانواع المغريات حتى يلعب بعقلك ويقودك الى حيث اراد. وصدق الله العظيم حيث يقول (شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) فاذا صحبته المرة الاولى الى ذلك المكان الخليع دعاك لمصاحبته مرة ثانية وفي هذه المرة تكون الين واسرع انقيادا من المرة الاولى وهكذا الى ان تصبح وانت من الماجنين المنهمكين منتهكا للحرمات غير مبال بعقاب رب السماوات وتروح بسبب تهاونك في هذا الجلوس المشتبه فيه فاجرا متعديا حدود الله منتهكا حرماته بعد ان كنت طاهر الذيل كف النفس قوي اليقين ويكون مثلك في ذلك مثل الراعي الذي يرعى الغنم او الابل او غيرها من السوائم وبدل ان يذهب بها بعيدا عن المكان الذي حماه الملك لنفسه وامر ان لا يرعى فيه احد وبدل ان يقود غنمه الى الارض المباحة للناس جميعا عمد الى القرب من الارض التي اختصها الملك او سيد القبيلة لنفسه ولا شك ان البهائم لا تعقل شيئا ولا تميز بين ارض وارض فقد تغلبه الى الخوض في حمى الملك فيكون بذلك قد عرض بنفسه لبطشه وعقابه بعد ان كان آمنا من ذلك كله بالبعد عن هذا المكان واذا كان لكل ملك من الملوك حمى يختصه لنفسه ويحميه من ان يجور عليه احد فان الله تعلى وهو ملك الملوك والمالك الذي كل ما سواه له مملوك قد جعل حماه محارمه اي الامور التي حرمها على عباده المؤمنين فمن تهاون بالمشتبهات حتى استباح حرمات الله فوقع في الحرام فقد استحل بنفسه عقاب الله وظلم نفسه بالمعاصي فاستحق انتقام ذي البطش الشديد وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد. كل هذا تضمنته تلك الحكمة البالغة في الحديث وهو قوله عليه السلام (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه الاوان لكل ملك حمى الا وان حمى الله محارمه)

هذا ولما كان القلب من بين اعضاء الانسان بمنزلة الملك الذي لا يكون للرعية ان تفعل شيئا الا باذنه وكان الجسم بمنزلة هذه الرعيه فعنه الصدور واليه ترجع جميع الامور. ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم التي في الصدور. لا جرم قفى على اثر ذلك المرشد الاعظم صلى الله عليه وسلم بالحكمة الختامية فقال (الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب)

القلب وما ادراك ما القلب القلب هو كل شيء في الانسان هو مكان الذكرى والتدبر هو مكان التعقل والادراك والفهم هو مكان النية والاطمئنان الا بذكر الله تطمئن القلوب القلب هو ذلك السر الالهي الذي انت به انسان وعليه مدار صلاحك او فسادك فبصلاحه تسعد وبفساده تشقى وصلاحه يكون بامتثال امر الحكيم المنعم الذي حكم بالحلال والحرام فتعمل بالاول وتترك الثاني وتحتاط فتجتنب المشتبه فيه ولا يكون ذلك الا بالعلم الذي هو غذاء القلب وبلسمه الشافي وبه ينهض الى القيادة التي خلقه الله لاجلها فهو لا يضل ما دام يهتدي بمصباح العلم ويرتشف من رحيقه والعلم علم القرآن والسنة قبل اي شيء آخر إذهما مصدر الحلال والحرام واليقين والتوحيد والمثل العليا لمكارم الاخلاق. اضاء الله قلوبنا بنور المعارف وهدانا لاجتناب طرق المخاوف

محمد الهادي ابن القاضي



صفحة من تاريخ تونس

انقراض طبقة من اهل العلم والفضل

بقلم العلامة المؤرخ أمير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية

اعلم ان نسبة القرن من الدهر كنسبة القطرة من البحر ولكن مائة عام يعمرها الانسان لها اعتبار في تاريخ الازمان وقد طوى الموت في تاسع شهور العام الماضي شيخا جليلا من اهل العلم ونعني به شيخ الشيوخ وطود الرسوخ بقية السلف مفتي السادة الاحناف فضيلة الشيخ احمد بن مراد توفاه الله عن مائة عام قضاها في خدمة العلم وبثه في الصدور ولقد قامت هذه المجلة في الابان بتابينه وتخليد ذكره رحمه الله ورضي عنه .

وبينا الناس في اسف وتوجع لمفارقة تلك البقية الصالحة من شيوخ الزمن الماضي اذ فاجأهم خبر انطفاء سراج اخر كان هو ايضا البقية الفاضلة من طبقة اهل الثقافة والنبوغ في العلوم العصرية عمر كسلفه مائة عام قضاها كلها في الجد والعمل بعزيمة لم تعرف الملل وثبات لم يتطرقه الفشل ونعني به المقدس المبرور جميل الذكر استاذنا الشيخ محمد القروي قيدوم عموم المتوظفين التونسيين المباشرين والمتقاعدين .

اصل سلفه من القيروان وكان ابوه يباشر الاشهاد بحاضرة تونس وله نسبة وعلاقة بمشيخة العلم يلبس الطيلسان والعمامة الضخمة والقفطان . ونشأ ولده المترجم له مع طائفة من ابناء البيوت التونسية في مدرسة باردو العسكرية وتعرف باسم مدرسة المهندسين في الاوساط التونسية وبها زاول علوم العربية والعلوم الرياضية والفنون العسكرية واللغة والاداب الفرنساوية . وهذه المدرسة التي عفت رسومها لنحو خمسة وسبعين عاما انشاها المشير الاول احمد باي لتعليم ضباط عساكره الفنون الحربية وبعض اللغات الاجنبية مع ما به الحاجة من العلوم العربية . واول من كلفه سمو الباي بادارة شؤون هذه المدرسة المعلم الامير الاي كالي قاريس (١) ولكنه عوضه بعد حين بضابط فرنساوي عينته لذلك

(١) من المستشرقين الاقدمين اصله من مدينة توران وارتحل صغيرا للشرق لاعتقاده أنه بلاد العجائب والغرائب فقرا العربية بحلب ثم التحق بالحملة العسكرية المصرية التي واجهت العساكر العثمانية بالشام ومن هنالك يمم الاستانة حيث دخل في خدمة اركان الحرب ثم هزته ارياح الاقدار لتونس في

الدولة الفرنساوية وهو الكمندان كمبنون الذي ارتقى فيما بعد لمسند الوزارة الحربية بباريس وهذا هو الاصل في اناطة تعليم العساكر التونسيين بعهدة ضباط فرنساويين من ذلك العهد الى الزمن الحاضر

واول من باشر تعليم العربية بالمدرسة المذكورة العلامة الشيخ محمود قابادو وقد اشتمل ديوانه على نبذة مفيدة في هذا الشان (١) ومن تلاميذها الاولين الشاب خير الدين (الوزير الشهير) والشاب رستم (وزيــر الحرب) والشاب حسين (مستشار المعارف) وغيرهم من المماليك الناشئين بالبلاط الحسيني ممن تولوا بعد زمـام الاحكام والوظائف العالية بالدولة التونسية . ولما استعرت نار الحرب بالقريم بين الروسيا وبين الدولة العثمانية وفرنسا وغيرهما من الامم الاروباوية بعث المشير احمد باي بنجدة عسكرية تونسية في عام ١٢٧٠ المشاركة في الحرب المذكورة لجانب العساكر التركية والفرنساوية وهذه التجدة كان في جملة ضباطها نخبة من الشبان الذين تمموا نصاب تحصيلهم في الفنون العسكرية بمدرسة باردو واتفق ان المشير احمد باي ادركه اجله في العام التالي فكان من راي خلفه بالكرسي الحسيني تسريح اكثر العساكر التونسية الضاربين بجهات العمالة لتدارك الاضرار الناتجة عن الضايقة الماليــة التي اوجبها ترتيب جيش عتيد في وقت السلم بدون حاجة اليــه واذاك تلاشت احوال النظم العسكرية التونسية ومنها مدرسة المهندسين المتحدث عنها ودام حالها كذلك بضعة سنين فلما ءالت نوبة الملك للمشير محمد الصادق بــاي كان في مقدمة مساعيه واعماله الصــالحة احياء المدرسة المذكورة للراغبين من الشبان في تعليم الفنون العسكرية فكان في جملــة اهل هـذا الرعيل الثاني فقيدنا الشيخ محمد القروي رحمه الله وبها زاول الفنون العسكرية مع علوم العربيــة والعلوم الرياضية فكان من النابغين بين الاقران المشار لهم بالبنان وكان من معاصريه بالمدرسة الشاب عمر بن بركات (رئيس جمعية الاوقاف) والشاب صالح عبد الوهاب (عامل المهــدية) والشاب العروسي بن عيـاد (مدير المدرسة الصادقية) والشاب سليم فارس ابن الشيخ احمد فارس الشدياق . ولقد وقفت له على رسالة

اواخر مدة المولى حسين باي الثاني واختلط ببعض رجال البلاط الحسيني ولازمهم الى ان تهيــأت لــه اسباب الانخراط في سلك معيني المشير احمد باي وهو الذي ناط بعهدته ادارة المدرسة المتحدث عنها وقد تعرض البحاثة مسيو منشيكور المراقب المدني كان بتونس لذكره في كتابه المسمى « وثائق تاريخيه في شان تونس » واتى على تاريخ حياتــه بمزيد ايضاح ومما قال في ذلك ان كالي قاريس وضع اثناء مباشرته لادارة مدرسة باردو كتابه المعروف في سيرة نابليون (بمساعدة الشيخ محمود قابادو) فكان كالي قاريس يترجم المادة وتلميذه حسين مستشار المعارف فيما بعد يكتب والشيخ قابادو يهذب الالفاظ وقال ايضا : ان كالي قاريس كان يعزو لنفسه علاقة بعلماء ءاخرين من جامع الزيتـونة منهم الاخوان الخوجيان الشيخ احمد والشيخ محمود اولهما قاضي تونس طفحت كاسه بعلوم الاسلام والثاني من اساتذة جامع الزيتونة كما كانت له ايضا صلة بالنحوي الشيخ محمد اللخمي وبالشيخ محمد التطاوني من كتاب الدولة التونسية وهو الذي مده بالاعانة الواسعة اثناء تصنيفه لسيرة نابليون اهـ

(١) انظر صفحة ٣٣ وما بعدها من الجزء الثاني من الديوان

مدرجة بالرائد التونسي في عام ١٣٧٨ ذكر فيها برنامج العلوم التي كانت تزاول يومئذ بالمدرسة وهي: النحو والصرف والانشاء والتاريخ والجغرافية والحساب والمساحة ورسم الخرائط الحربية بانواعه وفن الاستحكامات وبقيـة الفنون العسكرية واللغتان الفرنسوية والطليانية ومما افادته الرسالة المذكورة ان عدد تلاميذ المدرسة كان يومئذ مائة تلميذ وكانت ادارتها منوطة بلياقة الكمندان تفرنه من ضباط الجيش الفرنساوي وهو رجل كان الشيخ القروي لا يذكر اسمه الا بعبارات التمجيد والثناء على اخلاصه ونصحه في ماموريته وهو اي الشيخ القروي ورفقاءه ممن حملوا تابوته يوم ادركه اجله اثناء مباشرته لادارة المدرسة وكان مشهد جنازتـه رهيبا حضره سمو الباي بالذات وتاسف لفراقه اسفا شديدا .

هذا وبعد ان اتم الشيخ القروي نصاب تحصيله في العلوم العربية وفي الفنون الرياضية والعسكرية انخرط في سلك المعينين الوزاريين وكان نصيبه مباشرة ماموريته لدى الوزير محمد خزندار وهو من رجال الكد والجد والثقة والامانة وهي اخلاق فاضلة صادفت قلبا خاليا فتمكنت منه لانها كانت مطابقة لمواهب صاحب الترجمة فلما آنس منه متبوعه الحذق والنباهة والبراعة في اللغتـين العربيـة والفرنسية قدمه للمباشرة بصفة كاتب مترجم بمكسيون الرقابة الماليـة الاروباوية ودار الفلك دورتـه المعلومـة فمضى عهد الدور القديم وحل عصر الـدور الجديد بانتصاب الحمايـة الفرنسوية على تونـس ومن وليداتها مصلحة الكتابة العامة بالدولة التونسية واقسامها المحدثة منها قسم الترجمة فاتفق الكاتب العـام م. بمبار مع الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور على ان يكون السيد محمد القروي رئيسا للقسم المشار اليه وهكذا كان وظهرت يؤمئذ بمساعدته ونصيحته لياقة نخبة من خريجي المدرسة الصادقيـة الذين تمموا تعليمهم بمدارس باريس لمباشرة الترجمة بين رجال الدولتين الحامية والمحمية كان في مقدمة تلك الطائفة الصالحة المرحومان السيد محمد الجنادي والسيد البشير صفر وهذا الفذ الثاني استقل بعد حين برئاسة قسم المحاسبة بالكتابة العامة فكان اول تونسي مسلم تولى ضبط الحسابات العامـة بعـد ان كان ديوان الحساب بالدولة وقفا على اليهود

واتفق اثر ذلك احداث ادارة للعلوم والمعارف بتونس نيطت ماموريتها بعهدة المستعرب مسيو ماشويل معلم العربية سابقا بوهران وكان من مشمولات خطته النظر على جمعية الاوقاف التي شغرت رئاستها في تلك الاثناء فاختارت الدولة لرئاسـة الجمعية المرحوم السيد عمر بن بركات مدير المدرسة الصادقية وقدمت مكانه لادارة هـذه المدرسة المنعم السيد محمـد القروي ولكنه لم يباشر هـذه الخطة اكثر من اشهر معـدودات لاسبـاب لا يسعها هـذا المجال فرجـع صاحب التـرجمة لرئاسة قسم الترجمة بالكتابة العامة . ومنها انتـقل بعد حين لرئاسة الخزنة العامة وهي خـزانة محفوظات الدولة وكانت اوراقها مشتتة هنا وهناك لا يستفيد منها المطالع الا بالنـزر اليسير بعد الجهـد الوفير فشمر الشيخ القروي عن ساعد الجد وقضى سنين طـويلة في جمع شتـاتها وترتيبها

ترتيبا فنيا مستكملا من كل الوجوه ثم سعى وحصل بمساعدة مسيو روا كاتب الدولة العام الذي كان يقدره ويجله على بناء محلات فسيحة بسراية المملكة لنصب نحو مائة خزانة لحفظ تلك الاوراق وما الحق بها من دفاتر الدولة المرادية والوثائق التاريخية النادرة والعهود وجميع آثار العصر الحسيني السعيد بحيث اصبحت خزانة افادة تاريخية غير قابلة للنفاد ووضع لها مع ذلك فهرسا عاما كان محل اعجاب اهل النظر لانه مكن الدولة من الوقوف على الوثائق الصالحة لتصفية جملة من النوازل العويصة المتقدمة على نصب الحماية كنازلة القائد نسيم شمامة ونازلة ابن عياد وغير ذلك مما استحق به الفقيد الثناء الاعطر والجزاء الاوفر

وفي مدة مباشرته لرئاسة الخزنة العامة وضع كتابه المسمى السر المكتوم في احوال النوم طرق فيه باب البحث عن التاثيرات النفسانية وعلاقة الروح بالجسد والتنويم المغناطيسي وكان مع ذلك يتعاطى مطالعة كتب الحكمة للكشف عن نواميس الطبيعة واسرار الكائنات ولا سيما فنون الصحة ووظائف الاعضاء التي غرف من يمها غرفة ملية . واتفق بعد حين استقرار راي الوزير المقيم العام مسيو ريني ملي على احداث معهد للعلوم العصرية بعنوان طلبة جامع الزيتونة عمره الله وتفاهم في ذلك مع الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور فوقع الاختيار باشارة مسيو روا على ان يكون السيد محمد القروي رئيسا للمعهد المذكور وهو معهد ابن خلدون وتم تاسيسه بمشاركة نخبة من المتوظفين كنت ولا فخر في جملتهم واما نسبته لاسم ولي الدين ابن خلدون فانها من مبتكرات صاحبنا السيد البشير صفر الذي مات شبحه ولم يمت ولن يمت اسمه . وكان يوم افتتاح المعهد المشار اليه يوما مشهودا حضره الوزير المقيم السالف ذكره والوزير الاكبر وشيخ الاسلام ورجال الدولة واهل العلم والمتوظفون وكلهم كانوا لاهجين بفضل هذه المنقبة التي تم تأسيسها بقية الخلد المستفاد من اسم ابن خلدون (خلدونيه) وقام خطيبا في ذلك النادي الشيخ الرئيس القروي وتعرض فى خطابه لوظيفة الانسان في المجتمع وعرف بان جنس الانسان فيما افاده الحكيم كلود برنار عبارة عن طبقة بين الملائكة والحيوان ولولا ضيق المجال لا تينا على عبارة ذلك الخطاب النفيس . وبفضل المجهودات التي بذلها الشيخ القروي ورغم العثرات التي لقيها في سبيله تم ترتيب برنامج التعليم بالمدرسة الخلدونية على احسن أسلوب واتم مرغوب وكنت من المتشرفين في تلك الآونه بتدريس علم التاريخ بها لتلاميذها الاولين

ولما زار فخامة رئيس الجمهورية مسيو فليار حاضرة تونس سنة ١٩١١ قلد السيد محمد القروي بيده الصنف الثالث ترقية في وسام اللجيون دونور زيادة على الوسام العلمي الذي كان محرزا عليه من الصنف الاول وبعد ثلاث سنوات وقعت احالته على التقاعد بعد ان باشر خطته سنين كثيرة علاوة على الحد القانوني للاعمار ، واخر ما قام بـه من الاعمال الجليلة ترجمته لقانون الحدود .

على انه بعد احالته على التقاعد لم تستغن الادارة ذات الشان عن الاستفادة من معلوماته الواسعة وخبرته الشاسعة لذلك تفضل عليه المولى محمد الناصر باي قدس سره بالصنف الاكبر من نيشان الافتخار في عام ١٩٢٠

كان رحمه الله سليم الصدر بعيدا عن المجازفة والفضول وكان لطيف الشمائل فصيح اللسان حسن المحاضرة بل كان تاريخا حيا يمشي على رجلين وكان مشتغلا بنفسه عن عيوب غيره ثاقب الفكر يفهم بمجرد الاشارة قبل سماع العبارة مقصودا للافادة معروفا بالثبات والاجادة نقي العرض جميل الظاهر والباطن كريم الخلق ماشئت من معارف جمة ونفس بالاستزادة من الفضائل مهتمة يحب الانصاف لماله من حميد الاوصاف يقول ما يراه حقا ولا يبالي بصيرا بالعواقب عارفا بالسياسة متخلقا باوصاف الكياسة والرئاسة حنكته التجارب في كل المآرب ذاعفة ووقار وهمة عالية واعتبار ولم يزل محببا الى الناس الى ءاخر ما قدر له من الانفاس . توفي رحمه الله في السابع عشر من ذي الحجة الحرام سنة ١٣٠٩ واعقب اولادا تخلقوا بخلقه النفيس محسوبين في طبقة المتوظفين الاعيان جبر الله صدعهم ورزقهم الصبر والسلوان

ملحق — بعد الفراغ من تحرير هذه النبذة تذكرت وجود بطاقة لدينا من خط يد الشيخ القروي رحمه الله جوابا عن سؤال كنت القيته عليه قدما في شان مدرسة باردو ومتى كان دخوله للتعلم بها فبحثت عنها بمجموعة الوثائق التاريخية التي لدينا الى ان يسر الله لي العثور عليها ولذلك نقلها هنا بحروفها لاشتمالها على تحقيقات تاريخية يصح الاعتماد عليها لورودها من مصدر لا شبهة فيه وهذه عبارتها :

الحمد لله — اما بعد اتم السلام ومزيد التحية فان مكتب الحرب الذي احدثه (المشير) احمد باي تحت نظر الاميرالاي كليقاريس الطلياني اغلق في ايامه واعاده خلفه (المشير) محمد باي سنة ١٢٧٣ تحت نظر الاميرالاي تافيرن (الفرنساوي) وجعله بالسراية التي صارت محلا للوزارة بعد انتقال التلامذة للمحل الجديد الذي بناه الامير محمد الصادق باي وكان ذلك في صفر سنة ١٢٧٧ ودخلت انا هذا المكتب عام ٧٦ وبقيت به الى عام ١٢٨٦ ومات في اثناء المدة الناظر المذكور (تافيرن) وخلفه القايمقام كمبنون وهو الذي صارت وحشة بينه وبين الوزير مصطفى خزندار في عام ثورة علي بن غذاهم وسافر لفرنسا وسار بها وزيرا للحربية تحت رئاسة غمبيتا والمحل الجديد الذي كنا به هو الذي صار الآن قشلة للعسكر هذا ما عندنا الآن في هاته المسالة وان اردتم زيادة الايضاح فنحن بقربكم والسلام من ودودكم محمد القروي في ١٤ افريل سنة ١٩١٦ اه بلفظه

محمد بن الخوجه

اثر تاريخي
معاصر لجامع الزيتونة

بقلم الاستاذ الاثري امير اللواء السيد حسن
حسني عبد الوهاب رئيس الخزنة العامة

ما من تونسي من ابناء الحاضرة الا يعرف ان الواضع للحجر الاساسي لجامع الزيتونة هو التابعي ﴿ عبيد الله بن الحبحاب ﴾ ، وهذا غاية ما يعلمه التونسي من تاريخ معهدنا الكبير ، وهذه الرواية - وان كانت مختصرة - يتناقلها التونسيون خلفا عن سلف لما لهم من التعلق - بل من الصبابة الحقة والتعشق - في اقدم معهد علمي عربي موجود على وجه البسيطة ، زاده الله نورا على نور .

واذا نحن رجعنا الى مصادر التاريخ المعتمدة نجد الرواية التي يتناقلها ابناء الحاضرة عن مسجدهم الجامع صحيحة اثبتها قدماء المؤرخين ، فقد ذكر ابو عبيد البكري في مسالكه عمن تقدمه من الاخباريين ان « عبيد الله بن الحبحاب بنى الجامع ودار الصناعة بتونس » ونقل مثله ابن العذاري وغيرهما .

واذا ثبت من الناحية التاريخية ان ابن الحبحاب هو اول من شيد جامع الزيتونة فلا بأس ان نتعرف من شخص هذا المؤسس الذي أبقى لتونس حسنة عربية خالدة على الدهر ، حتى اذا ما اعتنى التونسيون يوما بحفظ تاريخ بلادهم، وأرادوا لن يخلدوا ذكرى مشاهير الرجال أصحاب المنة والفضل على وطنهم ، لم يغفلوا عن إكبار ابن الحبحاب في مقدمة المحسنين .

ولنعد ثانيا الى مسانيد التاريخ لنعرف الرجل من هو ونعرفه بما يستحق ، فنقول معتمدين على أقدم الامهات وهو « كتاب فتوح مصر والمغرب » لابي القاسم بن عبد الحكم قاضي مصر المتوفى سنة ٢٥٧ ﻫ

هو عبيد الله بن الحبحاب السلولي ، كان اوله كاتبا في دواوين الدولة الاموية ، ثم تناهت به الحال الى ان تولى مصر وافريقية والمغرب كله والاندلس . وكان - كما عرفه الاخباريون - رئيسا نبيلا ، سمح الطبع ، رضي النفس ، عذب الحديث ، بارعا في الفصاحة والخطابة - والخطابة اذ ذاك من أدوات الامارة - عالما بايام العرب ، حافظا لانسابها ووقائعها واشعارها ، مشتهرا بحسن التدبير وكرم النفس والتواضع حسبما نراه من سيرته بعد .

وقبل قدومه الى افريقية كانت له في امارته مواقف مشهورة واعمال جليلة في مصر . ومما يجدر بنا ذكره هنا ان خلفاء بني أمية امتازوا عمن سواهم بتقدير كفاءة الرجال وحسن اختيارهم للاصلح من القواد والانسب ، فقد عين الخليفة هشام بن عبد الملك صاحبنا عبيد الله واليا على مصر فقام بمهام امرها

احسن قيام ، وهو الذي اخضع ارض السودان وادخلها لطاعة المملكة الاسلامية ، وقد نقل ابن عبد الحكم في تاريخه المتقدم نص العهد الــذي اعطاه ابن الحبحاب الى سكان النوبة ومشارطته لهم ، ومن هذا العهد تعرف مقدرة والينا الجليل وبعد غوره في السياسة .

ثم على راس المائــة الثانية للهجرة اضطربت احوال افريقية وانتقض البربر سكان المغرب على العرب بدعوى الانحياز الى نحلة الخارجية ، فراى الخليفة هشام بن عبد الملك من الحكمة تعيــين ابن الحبحاب واليا على افريقية وما والاها من البلاد لما يعلم من كفاءة الرجل وحسن تدبيره .

قدم عبيد الله القيروان في ربيع الآخر من سنة ١١٦ ـ ستة عشرة ومائة ـ بعد ان استخلف على ولاية مصر ابنه قاسم ـ وكان ابن الحبحاب مصحوبا بوجوه معدودين من رجال الحرب والسياسة في الدولــة الاموية ، ولمجرد وصولــه باشر الامور بحزم لا يعرف الكلل وقابل الكوارث التي احدثها الثوار في المغرب والاندلس بعزيمة نادرة وروية ؛ فغير العمال وبعث النجدات الى الجهات ، ثم ارسل جيشا غازيا في البحر بقيادة حبيب بن ابي عبدة حفيد عقبة بن نافــع الى جزائر البحر المتوسط فغزا قوصرة (وهي جزيرة بنطلارية) وصقلية وسردانية بالمراكب المنشأت في دار صناعة تونس بمرسى قرطاجنة ، ورجع الاسطول الافريقي بعد اشهر غانما سالما .

قلنــا نقض البربر الطاعة في سائر المغرب الاقصى برئاسة اميرهم ميسرة البرغواطي الــذي تسمى بالخليفة ، فهاجمهم اسماعيل ابن الامير عبيد الله بجيوش جرارة تلاحمت غير ما مرة في ناحية طنجة وأقاليمها ، وكان بالمغرب حينئذ قوم من أقحاح البربر ظهرت فيهم دعوة الخارجية ولهم عــدد كثير وشوكة قوية فلاقاهم العرب في وقائــع عديدة واخضدوا شوكتهم في كل مرة حتى اذا ما تكاثر البربر على الجيش العربي ووثبــوا عليه من كل حدب وصوب استشهد من غزاة العرب فرسانه وشجعانه ، لا سيما في واقعة مشهورة في تاريخ الفتوح « بغزوة الاشراف » لكثرة من مات فيها من الكماة الابطال ، وبلغ خبر تلك الملحمة الى هشام الخليفة فقال : « والله لاغضبن لهم غضبة عربيــة ، ولابعثن لهم جيشا اوله عندهم وآخره عندي » ثم ان هشاماً كتب الى ابن الحبحاب بقدومه عليه فخرج من القيروان في جمادى الاولى من سنة ١٢٣ ، وهو آخر عهد به في افريقية .

هذه ناحية من سيرة ابن الحبحاب السياسية واعماله في توطيد الممالك للاسلام في مصر وبلاد المغرب .

وهنا مناسبة ثمينة لسياق الحديث بذكر منقبة بالغة وطرفة نادرة من اخلاق ابن الحبحاب تنبىء عن تواضع الرجل وخشيته لله تعــالى ، فقد روى ابن عبد الحكم باسناده وتبعه المؤرخ المغربي ابن العذاري في « بيانه » قالا : كان لعبيد الله بن الحبحاب اولاد ، قد اعجبتهم انفسهم ، فصادف ان قدم على افريقية عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان ابو عقبة هذا قد اعتق الحبحاب والد عبيد الله ، فلمــا دخل عقبة على عبيد الله قام اليه فاعظمه واقعده على سريره بقصر الامارة ، ولما خرج عقبة من عنده انكر

ذلك عليه اولاده وقالوا له : ما رأيك ان تعطيه شيئا من المال وتصرفه عنا ، لان وجوده بيننا مما يكسر شرفنا ويحط من قدرنا ؟

فقال عبيد الله لاولاده - نعم ! افعل .

فلما كان في غد امر الناس فدخلوا عليه ، وجاء عقبة في جملتهم ، فقام عبيد الله اليه واجلسه على سريره كما فعل بالامس ، ووقف قائما وقال : ان بني هؤلاء غرتهم غرة الشيطان بعزة السلطان ، وارادوا أمرا أخرج به عن الحق والمكارم ، ورأوا ما رأوا من بري بهذا الرجل ، وانا اخبركم انه مولاي ، وان اباه اعتق ابي ، وانا اكره كتمان امر الله سبحانه شهيد به علي ، وانكر نكران الجميل ! »

ثم ان ابن الحبحاب خير عقبة في ولاية ما شاءه من امارته ، فاختار الانتقال الى الاندلس فولاه عليها ، وذلك في سنة ستة عشر ومائة ، واقام عقبة واليا بها الى سنة احدى وعشرين ومائة .

فانظر - يا رعاك الله - الى هذه الهمة الشماء ، وهذه المكارم التي لا يستغرب صدورها في الحقيقة من امثال اولئك الذين سادوا العالم لا بسيوفهم وقوة جنودهم فحسب ، بل بما اتاح الله لهم من النحائز العالية والسجايا الغالية والاخلاق النادرة الوجود .

اما من ناحية حسن سلوك ابن الحبحاب مدة ولايته افريقية ، ولا سيما من جهة تدابيره النظامية ، وأثاره العمرانية ، فقد تقدم بنا انه اول مؤسس لجامع الزيتونة الميمون الطلعة على هذه البلاد ، ومما لا شك فيه ان بناءه الاولي دخل عليه من التغيير في عهد الدولة الاغلبية خصوصا في مدة الامير احمد ابن الاغلب ما صيره على الشكل الذي نعرفه منه اليوم ، تشهد بذلك الكتابة المرسومة بالكوفي العريض على دائرة قبة المحراب ، ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، مما امر بعماله الامام المستعين بالله امير المؤمنين العباسي ، طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته ، على يد نصير مولاه سنة خمسين ومائتين ، يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، صنعه فتح » .

ومن هنا يتضح لك ايضا تواضع الامير الاغلبي الذي رسم في البناء اسم متبوعه الخليفة العباسي ولم يذكر نفسه .

وقد اضيف بعد ذلك الى جامعنا على ممر الزمان سواء كان في عصر بني خرسان او في دولة بني حفص الطويلة المدى زيادات كثيرة وتحسينات بديعة زادت بهجته نضرة وجمالا ، ادامه الله منهلا صافيا لعلوم الدين ، ومنبتا مثمرا للهداة المرشدين .

وربما عدنا في فرصة اخرى - في هذه المجلة الزاهرة - الى التوسع في ذكر اخبار جامع الزيتونة من نشأته وابتداء ظهور التعليم بين سواريه ، وما قاله مشاهير الرحالين فيه ، ومن اشتهر قديما من اساتذته ومعلميه ، وبالله التوفيق .

***

ويلتحق بتاسيس جامع الزيتونة اثر تاريخي من الاهمية بمكان ، اود جلب الكلام عنه الآن، لما له من المساس الاكيد بموضوع هذا البحث .

منذ سنتين حظيت بالعثور على قطعة مدورة من الزجاج الاخضر ساقتها يد المقادير الى مجموعتي وبعد التامل منها الفيتها مكتوبة على وجه واحد بالخط الكوفي العتيق ؛ وباستقرائها تبين لي نص كتابتها وهو : « مما امر به الامير عبيدا الله بن الحبحاب ، مثقال نصف وقية ، واف . » اه فتيقنت

انها صنج ضرب بافريقية في مدة ولاية ابن الحبحاب يعني ما بين سنتي ١١٦-١٢٣ للهجرة ، فكان اغتباطي بها كبيرا وفرحي شديدا. وهذه صورتها

صورة الصنج

وحضرات القراء يعلمون بلا ريب ان الصنج - وجمعه صنوج - هو عبارة على قطع من الزجاج البلوري كانت تسكبها - وعلى الاصح تذيبها - الحكومات الاسلامية المتقدمة في دار ضربها (دار السكة) لقصدين كبيرين :

الاول - تجعل الحكومة منها مثاقيل الاوزان الرسمية - وهي ما نسميه اليوم بالصروف - توزعها على اصحاب التجارات وارباب الحرف لا سيما في المواد الثمينة كالاحجار الكريمة والعطور وغيرها ليزنوا للناس على المثاقيل الشرعية المقبولة ، وصنع هذه المثاقيل من خصائص الحكومة التي يباشر اعوانها صبها في المسابك الرسمية للدولة وتحت مراقبة المحتسب لما جاء في مسالة الميزان من التحذير في شريعتنا الغراء

والثاني - تجعل الحكومة العربية منها عيارا للنقدين يعني الدينار الذهب والدرهم الفضة تضربها من قطع الزجاج ايضا في دار سكتها وتسلمها بعد الى الصيارفة الموجودين بمملكتها حتى اذا جاء من يريد صرف دينار او درهم علم الصيرفي اذا كان النقد المعروض عليه للصرف طيبا ويشمل الوزن الشرعي المطلوب وبذلك تطيب المعاملات ويسلم الرعايا من الغش والتدليس ، ولا يخفى ان الشريعة السمحة لا تعتبر في النقدين (اي الذهب والفضة) الا الوزن والعيار ، ولا تلتفت الى سواهما . وهذه هي القاعدة الاسلامية التي ارتكزت عليها المعاملات بالنقود في الدول الاسلامية . ولذلك تراها اتخذت هذه الصنوج من الزجاج لان عنصره لا يقبل الزيادة او النقص على طول الزمان اللهم الا اذا انكسر

جاءت هذه الصنوج - من حيث الصنع - غاية في الابداع ، سواء كانت مثاقيل او عيارا واول من اتخذها في الاسلام هو الخليفة عبد الملك بن مروان ابو هشام الذي ضرب في ايامه صنج ابن الحبحاب المتحدث عنه ، ولا نعلم - فيما لدينا من الصنوج الافريقية - اقدم من صنجنا هذا ، ولذلك فانا نعتبره اقدم اثر لتنظيم الشئون الادارية في البلاد التونسية بعد فتح الاسلام لها ، زيادة على كونه معاصرا في العمر لجامع الزيتونة العامر فهو تربه وقرينه ، وها هو يتلالا في هندامه القشيب منذ سبكته ايدي العمال في دار سكة القيروان

اراني اطلت الحديث عن امر ربما يعتبر عند غيرنا تافها اذ ان حجمه لا يتجاوز القطعة الفضية ذات العشر فرنكات من عملتنا الجارية اليوم ؛ لكن الوثائق الاثرية الراجعة الى ذلك العصر الاسلامي الزاهر هي اندر من بيض الانوق بحيث ان كل ما يمكننا الوقوف عليه منها نعده غنما ثمينا ومرشدا معينا لتحقيق ما وصل الينا من الاخبار بواسطة المصادر التاريخية .

وفي عزمي - ان شاء الله تعلى - ان اجعل هذا الصنج المبارك في اطار مناسب واقدمه على سبيل الذكرى الى معهدنا الزيتوني العزيز ليبقى به وثيقة خالدة على الدهر وشاهدا حيا لتاسيس مفخرة من مفاخر الزمان

وفي ختام هذا البحث لي رجاء اكيد من القراء الكرام وهو ان يتكرموا عند انتهاء مطالعتهم لهذا بتلاوة الفاتحة واهداء ثوابها الى روح ذلك الفاتح المحسن اعني عبيد الله بن الحبحاب .

ولي الامل انا بفعلنا هذا نكون قد اثبتنا انا لا ننكر جميلا يسدى الينا كما علمنا اياه ابن الحبحاب فيما سبق من التاريخ

غرة المحرم ١٣٦٠ حسن حسني عبد الوهاب

الادب

معارضة قصيدة عامر ابن هشام

التي مطلعها

يا هبة باكرت من نحو دارين   وافت الي على بعد تحييني

قد جادت قريحة الفاضل الزكي الاديب الكبير الشيخ سيدي محمد المقداد الورتاني بهذه القصيدة العصماء التي عارض بها قصيدة الشاعر الفحل عامر ابن هشام القرطبي التي نشرت معارضة ادباء العصر لها بالمجلة في المجلد الثالث

فأجاد وأفاد بما جمع فيها من المعاني الرائقة والتشابيه البليغة والاوصاف الساحرة

وقد ضمنها عدة اغراض من ذكر طيب تونس ووصف اهلها ومنازلها والمقامات السامية بها ومنازل احوازها ثم منازل بعض بلادان المملكة ووصف حيواناتها وطيورها وقام برحلة خيالية في الكرة الارضية الى غير ذلك مما تضمنته هذه الفريدة الرائقة من التواريخ المفيدة والاشارات اللطيفة وقد علق على ابياتها التعاليق المفيدة تبيانا لما تضمنته من المعاني والتواريخ والاشارات كل ذلك باسلوب رائق جذاب ينم عن الروح التي تجلت في ابياتها وطريقة الشيخ الذي اختص بها في شعره والى السادة القراء نصها :

يا تونس الانس دار العلم والدين	هل هبة منك عن دارين تغنيني (١)
فانس اهلك لا انساه في بلد	وان اتيتك للاوطان ينسيني
وطيبك العطر والازهار نافحة	ومسك دارين تجر الهند والصين
شتان ما بين مجلوب على شحط	وناتج نافح كل الاحايين
فاقطف من الورد والخيري ونرجسها	او البنفسج او ءاس ويسمون
او القرنفل والقطمير نعنعها	والعنبرية او فل ونسرين
تلك الروائح للارواح منعشة	وعطرها ظل مرغوب السلاطين
فالبشر في تونس والعطف قد جمعا **	لجودة الذوق والآداب واللين (٢)
والعلم في البيت والفرعين يطلبه	ابناء شرق وغرب والسوادين
وما مساجدها على رثاثتها	الا تعبد افواج المصلين (٣)
والامن فيها على نفس وما كسبت	وفي الايالة طغيان الدهاقين
فلا ترم غلطا سكنى بخارجها	وما سر تديب مثل جنة العين (٤)
فانزل بها دار باشا منزلا وسطا **	او قبة في جوار لابن خلدون (٥)
وابعد على ساحة السبخا وفلتها	وفي السواحل انت غير ماذون
وصل في الجامع المعمور اين تجد	منابع العلم ما بين الاساطين (٦)

(١) دارين فرضة في البحرين بخليج فارس يجلب اليها المسك ويقال فيه الداري (٢) التعليم بجامع الزيتونة وفرعيه : الجامع اليوسفي والجامع الحفصي (٣) من ذلك جامع الزيتونة سقفه الغربي القابي وتحت السقف معلق بالاخشاب وفوق جداره ثقوب ينفذ منها الضوء والهواء (٤) سرنديب نزل به ابونا ءادم عليه السلام عند ما خرج من الجنة (٥) نهج القبة به دار خلدون سكنى السيد محمد داود الان (٦) الزيتونة اسس عند فتح تونس وقرطاجنة على يد حسان بن النعمان عام ٧٨ وتوالى عليه

ورد به كوثرا من الحديث وتف — سير وفقه ومن نحو الدمامين
نرجو له نهضة وللفروع معا — حتى نرى عصر مامون وممنون
سوق الفواكه والاثواب ساحته — والطيب ينفح من ملء الدكاكين
ولن ترى مثل طيب النيفري بها — والصدق في السبط من خير النبيين (١)
شتى الحشائش في سوق البلاط شفا — والكتب ساحة مدارس القشاشين
فادخل لمكتبة الحفصي ومنها الى — سوق العطور وسوق للبلاتين (٢)
وان مررت على حداد ألسنة — درهم يخوضوا وقل ذا ليس يعنيني
وءال محسن زر فسيح دارهم — ايمة شرفا رشم العرانين (٣)
قصر المرابط يزهو في فخامته — وشيخه صفر في مثل شاهين (٤)
دار الشريعة في الديوان زاخر ** بالعلم والعدل في ضمن القوانين (٥)
لها رئيسان زاد الله فقههما — على الدوام الى الاسلام والدين (٦)
فهل يعود انتخاب للقضاة بها — حتى يصان القضا من كل تخمين (٧)
وهل يلي مذهب النعمان مفتى مع الـ — قضاة يرشد في فقه وتمكين (٨)
المذهبين إخاء طبق شرعتنا — وفيهما رحمة للتونسيين
وقصبة الاغلبي تبدو بربوتها — كانها غادة في حال تزيين
وجئ سراية مالك شادها الامرا — بنو مراد وءالت للدواوين (٩)
واحضر قبول الوفود والامير بها — والحفل يحمل انواع النياشين
والذكر غليونجي يتلوه خاتمة — من سورة الفتح او طاها وياسين
والشعر ينشد عادات محببة — عند الملوك لتنويه وتمتين

البناء من عبيد الله ابن الحبحاب اول القرن الثاني ومن الاغالبة في القرن الثالث ومن الصنهاجيين باواخر القرن الرابع ومن بني خراسان في القرن السادس ومن الحفصيين بين ٦٠٣ الى ٩٤١ - يراجع ما كتبناه بالدرة المصونة في الكلام على جامع الزيتونة

(١) النيفري السيد حمادي النيفر الشريف مثال الاستقامة والكرامة (٢) البلاتين ذهب ابيض وسوق بيع الذهب يسمى ـ البركة (٣) سيدي محمود محسن امام ثان بجامع الزيتونة وابنه سيدي مصطفى امام ثالث به (٤) الفريق محمد المرابط عامل القيروان عند الاحتلال الفرنسوي

وصفر شيخ المدينة هو السيد مصطفى ابن البشير صفر المنعم وتوفي الان في ليلة السبت من صفر ٣ ومارس ١ والقصيدة تحت الطبع فزيد البيت الموالي :

وهاتوى بعد «حام» ٩٤ في حياة الفناء — واختار خلد أب نساء ومدفون

(٥) المحاكم الشرعية صارت لنظر الوزارة العدلية ١٩٢٢ وقد اوجدت بها القوانين

(٦) شيخ اسلام حنفي وشيخ اسلام مالكي

(٧) كان انتخاب القضاة الشرعيين في بلدان المملكة لقاضي القضاة بتونس ثم صار للوزارة العدلية ومراجعة جناب الوزير الاكبر

(٨) في بلدان المملكة يتمسك الخصوم بالمذهب الحنفي ويمكنون من ذلك وتجري المخابرات في طلب الارشاد من الحاضرة فلو كان مع كل قاض مفتي حنفي لكان الارشاد سريعا كما ان المفتي يفيد اتباع المذهب الذين هم في كثير من بلدان المملكة ـ (٩) تسمى الان دار الباي بناها حموده باشا المرادي في القرن ١١ ـ وسكنها حموده باشا الحسيني في اول القرن ١٣ والان بها اعمال الوزير الاكبر والكاتب العام ودواوينهما وياتيها الامير في المواسم وبعض الايام

والباي احمد كالحفصي وهادئـه ... وزيره الاخوة ابن تافراجين (١)
وحومة البحر سكنى كل جاليـة ... فيها رغايب مشغوف بتمـدين
حكت منازل باريز وروتقهـا ... وانما العدل والآداب في السين (٢)
كما حكت جارة اليهود كرطي لطا ... اذ جددت من ملايـين بتسعين
ورحبة الدرب تعلو ما سواها ومن ... توفيقها الكشف عن قرى الملاسين (٣)

***

وانظر الى الشرق بحرا والشمال ربى ... والغرب هضبة سيجوم وبيرين
ترى الصوامع اشكالا منوعة ... طوالها تطلب المرقى لنبتون (٤)
قبابها قمم الاجبال ثالجة ... او العمايم للحكام في الدين
وبرج رايس في سمت الجنوب علا ... تحكي مدافعه سود الثعابين
وحول قبة من تدعى بعائشة ... قصور اهل الثراء والعناوين (٥)
جوارها مدفن الجلاز تربته ... فراش اهل الوظيف والمساكين
وباب قاسم أو باب العلوج هما ... مسالك الكاف اومن باب سعدون
والبحر يقذف بالقصاد نجعتها ... وكل غاد يروح بالملايين

***

وللسماع بهذا القطر اعذبه ... وهو العلاج لمكدود ومحزون
له رشيدية المألوف مطربة ... بفن زرياب استاذ التلاحين
فرغبة النفس في مألوف أندلس ... وحظ مصغ سواه حظ مغبون
اجاد فيه خميس فهيأته ... وعوده مثل حاضن ومحضون (٦)
إذا نغى طفله المحضون يصغو له ... كما يغنيه من حين الى حين
يفيض الحانه الراديو سواسية ... لقطر تونس او سكان برجين (٧)
فاسمع صباحا وقبل النوم قارئه ... يوما بورش وأياما بقالون
إذا تلى فيه براق بنغمته ... تقول داود يتلو في فلسطين (٨)
فالروح في طرب والجسم في أدب ... والاذن لذتها قرءان جبرين (٩)
لا تعجبوا ان سمعتم من تكلم في ... اقصى الممالك من صندوق رديون
فقبله اسمع الفاروق سارية ... من طيبة فارسا فانحاز في الحين (١٠)

---

(١) ابن تافراجين وزير الدولة الحفصية في القرن ٨
(٢) الساين نهر يخترق عاصمة باريز وبها كارطي لطلبة مدارس التعليم
(٣) التوفيق بناءات محدثة خارج القصبة وباب سيدي عبد الله
(٤) نبتون اعلا الكواكب السيارة
(٥) السيدة عايشة المنوبية الصالحة
(٦) خميس بالتصغير ـ الترنان البارع في الضرب بالآلات وطبوع النوبات
(٧) بلد بغرب النرويج
(٨) علي البراق القيرواني
(٩) القرءان من تعبير جبريل للرسول عليه الصلاة والسلام طبق ما القي اليه أما بقية الكتب فهي من تعبير الرسل عما يلهمون به ولذلك كان القرءان محفوظا
(١٠) في نهاوند بفارس عرض للسيد سارية حصار من العدو فناداه سيدنا عمر ابن الخطاب وهو على المنبر بالمدينة بقوله : يا سارية الجبل فسمعه وانحاز للجبل بجيشه ونجوا

ان الخوارق من صنع ندبره　　على الكرامات من اقوى البراهين

***

فتونس ، مجمع اللذات فاتنة　　فاقت بلبس ومطعوم وتحسين
وجودة الفكر والتعبير معشرها　　والجود والجد سكان القياطين
وطقسها من حدود الاربعين الى　　صفر واعد له ما فوق عشرين
للشاذلي نسبوا في الساكنين بها　　« لا يشهدون وهم » في السبع مبين
هذا الذي نقلوا وكل ارض بها　　خير وشر على مدى الاحايين
يا ليتها سلمت من البعوض ومن　　رطب الهواء ومن صيف كأتون
ورغم ذلك لا انفك اعشقها　　ولم اجد في سواها ما يسليني
فالعيش يدفعني عنها لخارجها　　والعلم يجذبني لها ويدنيني
والمال تطلبني اسبابه واري　　قليله بشريف السعي يكفيني
وللوظائف اسباب منوعة　　وربما اجتازت الاحرار للدوني

* * * *

فاخرج لمنوبة ذات الرياض وزر　　دار المآثر واشرب ما البساتين (١)
وحول تونس سطر للحنايا كما　　قطار نوق يمدها بتموين (٢)
واصعد الى البلفدير اين تنعم في　　ظلاله بين مخضر الافانين
في سفحه اسس العمران بلدته　　وشاد فيها منارة لتأذين
وان بحثت على طيب الهواء ففي　　اريانة مبتغى برء المصابين
اما المريسى فقصر الملك تحسبه *** والبحر يلدز في بنا قسنطين
برج السلاسل ادركنا مدافعه　　فالحسن في شكله وذي لتحصين
تبدو شرافاته من حول قبته　　بقية من بني حفص السلاطين
لله دار الوزير للحفيد الابي　　فروضها للظبا والحوض للنون (٣)
دار العلوم وللاضياف داعية　　والظرف في ءال عاشور الميامين
دارت بها بيننا الآداب زاكية　　كما شربنا الصفاء بالفناجين
وان بدالك من ابي سعيد سنى　　فذاك هدي المنار في الدياجين
فالبر مرتفع والافق متسع　　والحسن اين نظرت دون تعيين
ودار الاخوة تعلو ما يجاورها　　كما علا جيشه فزر الشواهين (٤)
فاجعل مقيلك فيه والمساء بأطلال لقرطاج تقديس الرهابين
من قبل عيسى بطاء(٩)من قرون خلت　　جاءت تؤسسها أجفان ديدون (٥)

(١) المصنوعات العتيقة في باردو - والبساتين بناءات محدثة قريبا من باردو ماء ءابارها عذب نافع
(٢) الحنايا من راس الطابية الى تونس بناها المستنصر الحفصي في النصف الثاني من القرن السابع وجلب عليها ماء زغوان من الحنايا العتيقة
(٣) الوزير المنعم سيدي محمد العزيز بوعتور خلفه في قصره حفيده المفضال العلامة الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي
(٤) قصر الوزير الاكبر سيدي الهادي الاخوة الشريف
(٥) قبل المسيح بنحو تسعة قرون اسست ديدون الفنيقية مدينة قرطاجنة

قد احرقت ثم عادت للحياة وما   تت عند ما سامها حسان بالهون (١)
فحول الماء عن مجرى الحنايا وهل   حي يعيش بلادم الشرايين
من عجز مستنصر تحطيم هيكلها   مثل المدائن قد هدت بهارون (٢)
فاي ذنب اتى به البناء سوى   عمارة الارض او نفع وتسكين
لهفي عليها وقد رثى لها ورثا   من قبلنا محرز في شعر تابين (٣)
وبعد قرطاج جز الحلق وادوزر   عليا فراديس رادس ومقرين
وحمة الانف للاعصاب نافعة   واليبس في الجسم تنفيه بتليين
وعج لمرناق والقصر الملوكي به   وقبة أقبرت سعد الشواشين
اين الثمار الى السكان دانية   قطوفها والهوا يشفيك في الحين
وقربص ساعة طريقه وله   ما بين بر وبحر حسن تكوين
انعم بحمته وشرب نبعته   من عين اقطر لا عين الفكارين
وفي سليمان ردماء الحماري ومل   للبردقان بمنزل وليمون
هذي كواكب ترشيش وهالتها   صارت مناخا لاعشاش المساكين

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

وجنس تونس من عرب ومن وعجم   طباعهم بين اخلاص وتلوين (٤)
قد علموا البربر المجوس غيرتهم   وكلما نكثوا ردوا الى الدين
نعم اعانوا على فتح باندلس   ومغرب شان مغلوب وموهون
ومارسوا الفلك من جنس فنيقي مضى   في قابس واجيم والكلايين (٥)
وقوم رومة قد أبقوا بناء هنا   في دقة وبأجم كالفراعين (٦)
وتونس قلدت بالاحتلال لها   افرنجة في تبرج وتدخين
قطر هنيء مريئي والرخاء به   من حبه والنخيل والزياتين
ذا من طبرقة جونا للتوازين   والكاف غربا الى شط المعاوين (٧)

---

(١) احرقها الرومان - ثم عادت عاصمة وفتحها حسان بن النعمان ٧٨ ولما خانت قطع عنها ماء الحنايا وانتقم منها بهدم ما عسى ان يعودوا للتحصن به

(٢) جاء صان لوي الفرنساوي محاربا لتونس في القرن السابع وانزل جيشه في بقايا بناءات قرطاجنة وبعد الصلح خربها المستنصر وكان عليه ان يعمرها او يحرسها
كما ان هارون الرشيد خرب عاصمة الفرس وهي المداين بلا ذنب وله حكاية فيها مع البرامكة

(٣) للشيخ سيدي محرز ابن خلف صالح العاصمة المتوفى ٤١٣ قصيدة في رثاء قرطاجنة مطلعها
خليلي مرا بالمدينة واسمعا   مدينة قرطاجنة ثم ودعا

(٤) قال ابن خلدون ذهب افريقش بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البربر اليها من ارض كنعان الخ قات فالسكان الاصليون من بني حام ابن نوح وهم الاكثر الان واتاها العرب والفنيقيون والرومان (الطليان) والفندال (المان) واليونان والعرب والاتراك وارتد البربر عن لاسلام اثني عشر مرة

(٥) أجيم بجربة والكلايين بقرقنة وسكانهما بارعون في البحارة

(٦) دقة قرب تبرسق - والاجم بين سوسة وصفاقس

(٧) التوازين عرش في بنقردان

والثمر والطير والانعام وافـرة — والدر يخرج من احيم ميدون ١
مـاء المعادن لا تحصى منابعه — والسر في حره من غير تسخين ٢

***

ومن يلـذ له صوت الطيور يجد — في ارض تونس انواع التلاحين
ففي البـلابل والمنيـار بغيته — وفي الكنالو وزانم ومقنين
وفي خميـر جبـال الغاب شامخة — فصد بها النمر او اسد البراثين
والثلج والخصب والامطار دايبـة — من باجة في الشمال للورتـين ٣
واوسط القطر مرعى كل سائمة — من قيروان الى نخل الزيادين ٤
وما ورا قفصة صحرا الجريد بها — من نفطة واحـة الى تلمين ٥
تمـر شهي بهـا تختار جيـده — اربة المال في عيد الكوانين ٦
قصطيلة كالعراق طقسها والـذكا — وقفصة جنة كمثل جيرون ٧
انعم بها بلدة في حسن موقعها — وضمها النخل للزيتون والتين
يـا ليت قفصة للسلطان عاصمة — ترب كمسك ومـاء غير معفون
عين الدراهم والكاف المصيف متى — امـا الشتاء فتوزر العراجين ٨

***

والقيروان مزار القطر فانزل بها — في شهر نيسان لا بشهر تشرين ٩
نـور الهداية والتشريع بدؤهما — منها بنجل ابي سرح وسحنون ١٠
فاقت بجامعهـا وقبـر صاحبها — وبشر ساكنها العرب القحاطين ١١
دار المرابط ان تنزل مرحبة — وان اقمت تجد بيت العوانين ١٢

---

١ — احيم وميدون في جزيرة جربة
٢ — اشهر المياه المعدنية في قربص - والانف والجديدي - وبوحجبة والحامة حول قابس والحامة حول توزر وغير ذلك
٣ — ورتان بين ابة وسبيبة
٤ — بنوزيد حول حامة قابس وهم اضداد الهمامة
٥ — تلمين بكسر التاء واللام وتشديد الميم المكسورة في عمل نفزاوه بها جامع لعقبة ابن نافع
٦ — كانون الاول هو ديسامبر ولد المسيح في ٢٥ منه وكانون الثاني هو جانفي اوله مبدأ العام المسيحي يعتني النصرى فيهما بشراه التمر الجيد « الدقلة » لكون مريم اقتاتت من التمر عند ولادة المسيح
٧ — قصطيلة هي الجريد وجيرون اسم لدمشق
٨ — الملوك من قديم يصطافون بلاد الثلج ويشتون بلاد التمر
٩ — نيسان هو افريـل - وتشرين الاول والثاني هما اكتوبر ونوفامبر - فيهما الحر والذباب بالقيروان
١٠ — عبد الله ابن ابي سرح فاتح افريقية عام ٢٧ وسحنون ناشر فقه المدونة بشمال افريقية والاندلس في اول القرن الثالث
١١ — الجامع بناه زيادة الله اول القرن الثالث وهو اكبر من جامع الزيتـونة والصاحب هو ابو زمعة البلوي الشهيد في واقعة جلولا عـام ٣٤ ومشهده قايم بعد وادي السقي ويقال لتلك الحوطة سيدي عبد الله الشهيد اما المدفن ففي القيروان ويقال لقبرته البلوية
١٢ — المنعم السيد الصادق المرابط حاتم القيروان وولده الان عبد الرحمن له شبه به والعوانيون هم نقباء الشرف في القيروان

واقصى الخريف بنزرت وشاطئها ... وراس جبل ورفراف وصونين ١

***

ولا تغب اي فصل عن صفاقس اذ ... ترى بهـا المجد للدنيا وللدين
فالحزم شيمتها والخـز حليتهـا ... كنز الثرا والثمار والرياحين
صفاقس عطرها من زهر تربتها ... يزري بمسك اتى اسواق دارين
محمودها الشرفي المفتي النبيل اذا ... سمعت ءادابه قلت ابن زيدون ٢
وسوسة ان تقم يوما تماما بها ... تكفيك منها بناءات السلاطين ٣
وقبـة الشيخ يحيى القيرواني على ... باب المدينـة مقصود القرابين
وبت بعاصمة المهدي وساحلها ... وماء راجيش اوبستان هيبون ٤

***

ومـا سبيطلـة الا الميـاه بهـا ... تهمي دموعا عليهـا حـال محزون
قد قدمت بنت جرجير فداء لها ... وصلحها ذهب من وفر زيتون(٥)
فالبنت لابن الزبير نفلوه بهـا ... وخمس خمس الى جـد المراوين
وطود زغوان يشفينا ونحي به ... من مآئه العذب او من عطر نسرين
ضموا له مـآء سيل لا يلائمنـا ... وليتهـم خصصوه بالبساتين (٦)
واليوم هل من مزيد لازدياد الضما ... اذما كفى الماء من برقو البحيرين(٧)
ولا تقل قطرنا لا شيء يشبهـه ... فان في الكون ما فـوق الاظانين

❀ ❀ ❀ ❀

فحقق الامر بالاسفار واعن بهـا ... فالماكثون بارض كالمساجين
فقد مضى الزمن الذي يقـال به ... فـلا اسير الى من ليـس يدريني
وسح بشرق وغرب تستفد بهمـا ... ولا تقف دون شيكاغو وجابون(٨)
واقرب من القعلب في النرويج صائفة ... وفي البوير بعرض في الثلاثين (٩)
في البحر باخرة والجـو طائرة ... والبـر سائـرة بصفو بنزين
فبادر الشرق نحو مصر واسم الى ... فسطاط عمرو وأهرام المدافين
فقد بنى جوهر هنـاك قاهرة ... وازهرا ارخنا بالصاد والسين

٣٠٠ ٦٠

---

١ صونين قرية في البساتين بين راس الجبل ورفراف
٢ – توفي عام ١٣٥٨ وقلت في رثائه :
مات محمود السجايا الشرفي ... فعفت ءادابنا وا أسفي
٣ - جامعها ومدرسة الرباط ومنارها وسورها وقصبتها من بناء ملوك الاغالبة في القيروان
٤ – راجيش جنوب المدينة وهيبون غربيها
(٥) ابنة جرجير صاحب سبيطلة اخذها عبد الله ابن الزبير وكان الصلح على قناطير من الذهب اخذ خمس خمسها مروان بن الحكم وكثرة الذهب بافريقية ذكروا انه من ثمن زيت الزيتون الوافر بها
(٦) ماء سد الوادي الكبير
(٧) البحيرين من قرى برقو المجلوب ماؤه لتونس
(٨) شيكاغو في وسط امريكا الشمالية والجابون في اقصى الشرق
(٩) جوهر الكاتب الصقلي (او الصقلبي) جمع العلم والسياسة والشجاعة واسس القاهرة المعزية نسبة الى متبوعه المعز لدين الله العبيدي واسس الجامع الازهر بها في نحو سنة ٣٦٠

وحفلة الالف لولا الحرب خف لها — اعلام فاس وبغداد وباكين (١)
وليس في الحرمين ما يخاف وهل — كابن السعود الى عدل وتطمين
فطف بمكة واخلص نحو طائفها — واجهد لنفل كمفروض ومسنون
واحرص لتعرف في الحجاج نخبتهم — فذاك للاتحاد خير عربون
هناك احكم خير الرسل بيمنه — بدابست الى خمس وسبعين
وسل تجب عند قبر كان صاحبه — نورا وءادم بين الماء والطين
ميلاده برج ثور بدء هجرته — من غار ثور قبا برج الموازين (٢)
شوقي اليه وان احظى بزورته — شوق يؤرقني دوما ويضنيني
فمن سماحته ومن شفاعته — دهري يساعفني والحوض يرويني
وما التوجه الا نحو طيبته — والقبلتين لغفران وتامين
فارحل الى القدس والشام الخصيب وعج — الى الخليج وسوق مسك دارين (٣)
ولا تهن دون بغداد ودجلتها — وتربة الجيلي شيخ المريدين
ومن هناك لطهران وفارسها — وما ورا نهر جيحون وسيحون
وليت مالك يكفي كي تسير به — للهند والصين حتى بحر بهرين (٤)

***

وارجع الى الروس والبحر المليك به — على سخالين في قطار خربين (٥)
وان تصل لابي ايوب فادع به — دفين استانة كرسي الخواقين
واعجب بيبأة بسفور وشاطئه — وملبس الخلفاء والنبيئين
نعم عرى الجامع المدعو بصوفية — كما بكى يلدز ابطال ما بين (٦)
ذي عبرة فاعتبر ابطال انقرة — وواصل السير غربا نحو برلين (٧)
اقم بلبسيك حيث الكتب وافرة — وامرر لباريز باالالزاس والرين (٨)
باريز آمنة في الحرب سالمة — وقد غدت حرة ليون في الرون (٩)
وبعدها رومة كرسي المسيح بها — ومن عجائبها نار البراكين (١٠)
ولا تعد قبل ان تحلل باندلس — على بيونة اومن درب لوشون (١١)

(١) باكين عاصمة الصين الذي به عشرات الملايين من المسلمين

(٢) برج الثور لشهر افريل الذي ولد في ٢٠ منه صلى الله عليه وسلم وحل قبا في الاعتدال الخريفي الذي تحل فيه الشمس برج الميزان

(٣) خليج فارس به البحرين وسوق مسك دارين

(٤) بحر بهرين بين الجابون وامريكا

(٥) جزيرة سخالين شمال الجابون وقطار خربين يخترق سيبيريا الى الروسيا

(٦) جامع ءاية صوفية ازيلت عن جدرانه الكتابات الاسلامية حتى عاد ظهور الصور المسيحية وعطلت به الصلاة . والمابين يدل على الحكومة العثمانية وكان مركزها قصر يلدز

(٧) برلين عاصمة المانيا

(٨) الرين نهر عظيم بين المانيا وفرانسا

(٩) نهر من بحيرة جنيف

(١٠) رومة مقر رئيس الديانة المسيحية والبراكين جبال تتصاعد منها النار والدخان

(١١) لوشون في فرنسا بها مياه معدنية ومنها طريق الى اسبانيا يخترق جبال البيريني «راجع ما كتبناه عنها في صحيفة » ٦٠ من الرحلة الاحمدية

فهي التي ابتكرت ياهبة باكرت — وابدعت شعر توشيح وملحون (١)
وادخل لقرطبة العصما وجامعها — وحيى غرناطة ذات الاواوين
واجعل طريقك طارقا لمغربنا ** — اين اعتلت دولة المهدي ومرين (٢)
ففاس ادريس بيضـاء شقيقتها — حمراء مراكش كرسي ابن تشفين (٣)
اقصى المغارب اثرى الله ساكنه — فالعلم والمال كسب البيض والجون
اهل النجابة والاقدام في سفر — وفي المواقف ابطال الفراسين
وزر هناك ابن عباد ثوى درنـا — عدا عليه خليفة ابن ياسين (٤)
لم يرض رعي خنازير وينجو بها — واختار نفيا لدى المرابطين (٥)
ومن تكن بالعدا الاغيار نجدته — على بني جنسه في حكم مافون
كنجدة الفنش للحفصي فشال به — ان كان في ملكه كمثل مرهون (٦)
وجز تلمسان للوادي وبسكرة ** — على بني نائـل الى تماسين
واهد السلام لعقبة بتربته — مؤسس القيروان عـام خمسين
وادخل تبسة في الرجعى وحيدرة — واشرب مياه الصرا حول الزوارين (٧)
وان سلكت على تستور اندلس — فاصعد لصومعة في شكل حلزون
هم انتجوا الزعفران حول مجردة — وعمموا الارض بالزيتون والتين (٨)
وعد الى تونس الخضراء مغتبطا — وقل وعيت وما شاهدت يكفيني
ايـاك تحسب ترحالا لاجمعها ** — كمن يحاول جمع ال وتنوين
فان عزم الفتى يدني الثريا وما — يشاؤه الله بين الكاف والنون
وانما الحزم تنفيذ وليس كمن — يعطي المواعيد في سقي الكمامين (٩)
فان قيمة ما تجنيه في سفر — تغلو على كل مبذول وتثمين
واكتب لما نلت من خبر ومن خبر — فالعلم يبقى بتلقين وتدوين
واحكم بعدل على الاشياء دون هوى — فذبح اهل الهوى من غير سكين
واعمل لتنفع قطرا قد نشأت به — اذ بـره واجب على المداين
وقل حمى الله ترشيشا وارخ لها — بعام صـاد بعيـد السين والشين

محمد المقداد الورتاني «٦٠» «٣٠٠» «١٠٠٠»

(١) عامر بن هشام مدح قرطبة وكره الخروج منها في قصيدة مطلعها : ياهبة باكرت من نحو دارين » وافت الي على بعد تحييني

(٢) دولة المهدي ابن تومرت وهي الموحدية وبعدها دولة بني مرين

(٣) ادريس الاصغر مؤسس فاس ١٩٢ ويوسف ابن تاشفين اسس مراكش ٤٤٥

(٤) ابن عباد صاحب اشبيلية نفاه يوسف ابن تاشفين باغماة فاطاع وابى النجدة بالفنش الاسباني عند ما اشير عليه بذلك وقال رعي الابل اي عند ابن عباد خير من رعي الخنازير اي عند الفنش فعبر بذلك عن حكمة وهمة

(٥) المرابطيون اسس دولتهم محمد ابن ياسين

(٦) استنجد الحسن الحفصي وابناه احمد ومحمد بالفنش الاسباني على محاربة بني جنسهم لتمهيد ملكهم بتونس فلاقى كل واحد منهم الاهانة جزاء الخيانة ومات معزولا من الملك

(٧) الزوارين بين ابة وصرا ورتان

(٨) الزعفران لا يوجد بالمملكة في غير تستور

(٩) قال الشاعر : (فاصبحت كالكمون ماتت عروقـه ۞ واغصانـه مما يمنونـه خضر)

﴿ اصلاح غلط ﴾

بمعارضة قصيدة عامر ابن هشام

الصواب : مدراس — زاخرة ١٨٣ — بهاة بسفور ١٨٩ — السرا — وسرا ١٩٠

الاشتراك

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

مجلد المجلة عشرة اعداد في السنة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي ابن القاضي

والمخابرات المالية تكون معه

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس